بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة العنكبوت من الآية (١) إلى الآية (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [سورة العنكبوت:١-٤]**، أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة "البقرة".**

وقوله: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ} استفهام إنكار، ومعناه: أن الله -سبحانه وتعالى- لابد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء"، وهذه الآية كقوله: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [سورة آل عمران:١٤٢]**، ومثلها في سورة "براءة"، وقال في البقرة: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}** [سورة البقرة:٢١٤]**؛ ولهذا قال هاهنا: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} أي: الذين صدقوا في دعواهم الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه، والله -سبحانه وتعالى- يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة؛ وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل: {إِلا لِنَعْلَمَ}** [سورة البقرة: ١٤٣] **إلا لنرى؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد.

فقوله -تبارك وتعالى-: **{أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا}** يعني: أظن الناس أن يتركوا؟، والحسبان هنا بمعنى الظن، وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ}** يعني: يمتحنون ويبتلون، وأصل الفتْن بمعنى الاختبار والامتحان؛ ولذا يقال لإدخال المعادن في النار من أجل أن تتخلص من شائبها فتصفوا معادنها، هذا أصل الفتْن، ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}** [سورة البروج:١٠]، فتنوهم: فُسر بهذا وهذا، قيل: أحرقوهم بالنار في قصة الأخدود، وقيل: فتنوهم يعني في دينهم، والمعنيان متلازمان، فهم فتنوهم في دينهم، أرادوهم على الكفر، وأدخلوهم في النار من أجل ذلك.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}**، يعني: أن هذه هي سنته الجارية في عباده، والعلم هنا **{فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا}** الله يعلم ما كان، وما يكون، وما

لم يكن لو كان كيف يكون، فعلم مالم يكن لو كان كيف يكون كقوله مثلا: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً} [سورة التوبة:٤٧]، والله -تبارك وتعالى- لما رد على المنافقين حينما وعدوا اليهود بأن ينصروهم وأن يخرجوا معهم قال: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} [سورة الحشر:١٢]، هذا علم ما لم يكن لو كان كيف يكون، فأخبر عما لم يكن، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، فلم يخرجوا معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، وكذلك كان، {وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} وهم ما نصروهم، فهذا من قبيل علم ما لم يكن لو كان كيف يكون، فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا} يعني في دعوى الإيمان، {وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} الله يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، و المراد بقوله -تبارك وتعالى-: {فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**والله -سبحانه وتعالى- يعلم ماكان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله: {إِلا لِنَعْلَمَ}، إلا لنرى؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود**" يعني: أن الله -تبارك وتعالى- يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن، ما كان هذا الموجود وما يكون هذا المعدوم، قاله ابن عباس -رضي الله عنهما-، وهو الذي مشي عليه ابن كثير، حيث فسر العلم هنا بمعنى خاص وهو الرؤية، وهذا معنى قول من قال من أهل العلم: إن العلم المراد به هنا علم تحقق الوقوع، فإن تحقق الوقوع هو المقصود هنا، وكلام ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أي لنرى، وهو الذي فسره به ابن كثير-رحمه الله-، وهذا معنى قول من قال: أي العلم الذي يترتب عليه الجزاء، فهذه عبارات متقاربة صحيحة لا إشكال فيها، والعلم الذي يترتب عليه الجزاء ليس هو ما كان في علم الله -تبارك وتعالى-، وإنما هو صدور ذلك ووقوعه من المكلف، هذا العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وعلى هذا تحمل النصوص الواردة في هذا المعنى، والأشياء التي يذكر الله –عز وجل- علمه عنها بصيغة: حتى نعلم كذا، كقوله مثلاً: {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [سورة محمد:٣١] يعني حتى نعلم المجاهدين، المقصود بالعلم هنا علم الوقوع وهو الذي قال ابن كثير إن ابن عباس فسره بأخص من مطلق العلم وهو الرؤية، رؤية ذلك حصوله من المكلف، {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ} أن يقع ذلك ويحصل ويتحقق، فهذا هو العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وأيضاً مثل: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ} [سورة البقرة:١٤٣]، الله يعلم من سيتبع الرسول ومن يرتد لكن المقصود العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وهكذا إذا رأيت شيئاً من ذلك فهو محمول على ذلك المعنى؛ لأن الله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه خافية، لا يخفى عليه من سيتبع الرسول ومن سينكص على عقبيه، والله تعالى أعلم.

وقوله: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} أي: لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم؛ ولهذا قال: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا} أي: يفوتونا، {سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} أي: بئس ما يظنون.

قوله: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا} أن يسبقونا: يعني أن يفتنونا فلا نجازيهم، ولا نحاسبهم، ولا نعاقبهم على سيئاتهم فإن الله -تبارك وتعالى- قادر عليهم، ونواصي الخلق بيده لا يفوته منهم أحد {إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا} [سورة الرحمن:٣٣].

{مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة العنكبوت٥-٧].

يقول تعالى: {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ} أي: في الدار الآخرة، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملا موفوراً، فإن ذلك كائن لا محالة؛ لأنه سميع الدعاء، بصير بكل الكائنات؛ ولهذا قال: {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ} معنى الرجاء: الحافظ ابن كثيرهنا لم يبين المراد به على وجه الخصوص، والرجاء يأتي بمعنى الطمع فلو فُسر به هنا لقيل: {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ} يعني: من كان يطمع بلقائه -تبارك وتعالى-، والقرطبي -رحمه الله- فسر الرجاء هنا بمعنى الخوف، ونقل عليه الإجماع، {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ} أي من كان يخاف لقاء الله {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا} [سورة يونس:٧] يعني: لا يخافون لقاءنا، بهذا الاعتبار وعلى هذا المعنى لا يخافون لقاءنا، فيكون المعنى {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ} يعني: يخاف لقاء الله، لكن لو قال قائل: يرجو لقاء الله أي يأمل ذلك ويطمع بلقائه، من كان يطمع بلقاء الله -تبارك وتعالى- فلا شك أنه يحسب له حسابه فيكون الخوف والرجاء يحدوانه ويسوقانه فيطيب له المسير إذا كان قد استجمع هذه الأمور مع محبة الله - تبارك وتعالى-، ولهذا في كثير من المواضع تجد حينما يذكر الله -تبارك وتعالى- بعض الأعمال أو الإجرام أو ما يصدر من بعض الناس يربط ذلك بالإيمان باليوم الآخر، أو حينما يحثهم على عمل من الأعمال {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ} [سورة التوبة:٢٩]، {مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [سورة الطلاق:٢]، كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- كثير، وكذلك جاء في القرآن مثل هذا، أن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يدعو الإنسان ويحفزه إلى الامتثال والعمل، لو علم أنه سيحاسب ويجازى في يوم يقف فيه بين يدي الله -تبارك وتعالى-، {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ} ولقاء الله: مضى الكلام على هذا في بعض المناسبات السابقة، فبعض أهل العلم يفسر ذلك باليوم الآخر أنه يبعث وهذا معنى عام، والله -تبارك وتعالى- أخبرنا أن الناس يقفون بين يديه {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا} [سورة الأنعام:٣٠]، فهذا من لقاء الله -جل جلاله-، وكذلك أخبرنا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الحساب، وأن الله -تبارك وتعالى- يحاسب كل واحد بمفرده حساباً خاصاً، فهذا من لقاء الله -جل جلاله-، وقد يطلق على ما بعد الموت عموماً فيقال: فلان لقي ربه بمعنى أنه ارتحل إلى الدار الآخرة قال: {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- لم يفسر هنا {فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ} ولو قيل: إن لقاء الله هو اليوم الآخر فإن ذلك له أجل معلوم، ولو فسر بالوقوف بين يديه في الحساب فذلك له أجل معلوم عند الله -جل جلاله.

وقوله: {وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ}، كقوله: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ} [سورة فصلت:٤٦] أي: من عمل صالحا فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله غني عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئا؛ ولهذا قال: {وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}.

قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد، وما ضرب يوما من الدهر بسيف.

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: إن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله ليس تفسيراً لـــ {فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ}، ولكنه من قبيل ذكر بعض لوازمه، فإذا جاء أجله -الأجل الوقت المعلوم- فإن الله سيجازي كل عامل بعمله، فيوفيه حسابه .

ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم، ومع بره وإحسانه بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [سورة النساء:٤٠]، وقال هاهنا: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

فيما ذكره من الشواهد قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}، ذكر الآية ولم يفسرها وكأنه ذكر ذلك من قبيل الشواهد، وأول الآية تكفير السيئات لا يخفى معناه لكن قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} فـــ"أحسن" أفعل تفضيل، وبعض أهل العلم يفهم من مثل هذا أن الله تفضلاً منه وتكرماً على عباده يجازي أهل الإيمان بأحسن أعمالهم، يعني أن أعمالهم تنقسم الى أحسن وحسن، فهو لفضله -تبارك وتعالى- يعطيهم ويعاملهم أحسن الأعمال ويجازيهم بأحسن العمل الذي عملوه هذا معنى، وبعض أهل العلم يقول: إن أحسن هنا ليس المراد بها معنى أفضل التفضيل وإن كانت على صيغة أفعل التفضيل، ولكن المراد بها مطلق الوصف بمعنى أن الله -تبارك وتعالى- يجازيهم بالحسن من أعمالهم، ويتجاوز عن السيء، ولا شك أن أفعل التفضيل قد تأتي ويراد بها مطلق الاتصاف، ومنه على أحد القولين -وهو الأقرب والله تعالى أعلم- {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} [سورة الليل:١٧]، ومعلوم أن من السلف من فسره بأفعل التفضيل، وقال: المراد: أبو بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه- فسر بهذا: الأتقى -أفعل التفضيل-، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن المراد مطلق الاتصاف، يعني سيجنبها التقي من الناس، وذكرت شاهداً عليه وهو قول الشاعر:

تمنى رجالٌ أن أموت وإن أمت *** فتلك سبيلٌ لست فيها بأوحد

يعني: لست فيها بواحد، فمن أهل العلم من فسر قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} يعني: ولنجزينهم بالحسن، أحسن بمعنى الحسن، فيكون قد جمع لهم بين تكفير السيئات والجزاء على الأعمال الحسنة، ومن أهل العلم من فسره -وهو قول كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- بأن المراد: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} يعني أحسن الذي كانوا يعملون في حال شركهم، فأعمالهم في

حال الشرك منقسمة فيجزيهم بأحسنها قال هنا: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} يعني: في حال دخولهم في الإسلام تكفر عنهم السيئات ويجزون بالأحسن من أعمالهم، لكن يبقى السؤال في هذا أن أعمالهم منها ما هو حسن ومنها ما هو أحسن، ومنها ما هو سيء لكن يمكن أن يقول: إن القسمة بهذا الاعتبار هذا أحسن وهذا أسوء، فيكون الجزاء بالأحسن أو على الأحسن، فالأحسن يدخل فيه الحسن إذا جعلت القسمة ثنائية، وابن جرير -رحمه الله- من أين أخذ هذا؟ ذلك باعتبار ما كان في حال الشرك أنه قال هنا: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ} دخلوا في الإيمان، وهذه السورة مكية {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ} التي مضت {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} لكن بالنسبة لأهل الإيمان الذين يعملون السيئات، هل يقال بأن من كان مؤمناً فإن الله يجزيه بالأحسن من أعماله أو بالحسن بإطلاق ؟ كل من كان مؤمناً وعمل الصالحات فإن الله يجزيه بهذا.

ابن جرير لاحظ هذا المعنى فقال: هذا لمن دخل في الإيمان فهو وعد من الله أن يكفر عنه؛ لأن الإيمان يجبّ ما قبله، ولكنه أسلم على ما أسلف فيجزيه على أعماله الصالحة الطيبة، لكن بالنسبة لعموم المؤمنين إذا وقع منهم بعد الإيمان السيئة فهم تحت المشيئة، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، ومعلوم أن من أهل الإيمان من يدخل النار، وهذا يعني أنه لم تكفر عنه سيئاته، وليس لعموم أهل الإيمان وعد بهذا، ولهذا كان منقبة لأهل بدر أن الله قال: ((اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم))[1]، وفي مثل هذا المقام يحسن أن تُجمع نظائر ذلك من القرآن في الآيات التي فيها تكفير السيئات، ثم بعد ذلك ينظر إلى اعتبار المجموع أن الآيات يفسر بعضها بعضاً، لكن هنا الكلام على توجيه كلام ابن جرير -رحمه الله-، يعني: من الناس قد يستبعد هذا من أول وهلة، فلماذا حمله على هذا المعنى الخاص -في حال شركهم- فقال هذا التوجيه؟، الذي حمله هو ما ذكرت وإلا فالمقام يحتاج الى تتبع، ونظر في النصوص الواردة في هذا الباب، والله تعالى أعلم.

{وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ} [سورة العنكبوت:٨-٩].

يقول تعالى آمرا عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق؛ ولهذا قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّي ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء:٢٣-٢٤].

ومع هذه الوصية بالرأفة، والرحمة، والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم قال: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا}، أي: وإن حرَصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، لا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إلي يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما،

---

١ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرا، برقم (٣٧٦٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أهل بدر -رضي الله عنهم- وقصة حاطب بن أبي بلتعة، برقم (٢٤٩٤).

وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع مَنْ أحب، أي: حبا دينيا؛ ولهذا قال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ}.

وروى الترمذي عند تفسير هذه الآية عن سعد قال: نزلت فيَّ أربع آيات، فذكر قصته وقال: قالت أم سعد: أليس قد أمرك الله بالبر؟ والله لا أطعَمُ طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شَجَروا فاها، فأنزل الله: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} الآية.

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي أيضا، وقال الترمذي: حسن صحيح.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ما تعرض لتفسير ذلك على الخصوص، إنما ذكر المعنى العام للآية.

مضى الكلام على معنى الوصية في سورة الإسراء، وقلنا إن قوله –تبارك وتعالى-: {وَقَضَى رَبُّكَ} [سورة الإسراء:٢٣] أي: وصى، وإن الوصية هي طلب الفعل أو الترك مع التأكيد على ذلك، هذه هي الوصية، أوصيك بكذا.

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا} يعني: وصيناه بالإحسان، قال -تبارك وتعالى-: {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا} ولم يقل: وصيناه بوالديه، فـ "حسنا" هنا نعت لمصدر محذوف، يعني وصيناه إيصاءً، وصى إيصاءً، هذا الإيصاء نعته "حسناً"، يعني: أنه إيصاء بالإحسان، وصيناه إيصاءً حسناً قال: حسناً على المبالغة، وصينا الإنسان حسنا، وصاه إيصاءً فعبر بالنعت بهذا المصدر على سبيل المبالغة، وبعضهم يقول: هذا على حذف المضاف، يعني وصينا الإنسان حسنا يعني ذا حسنى، وعلى كل حال وصيناالإنسان حسناً أن يفعل، أو وصينا الإنسان أن يفعل الحسنى هذه طريقة الكوفيين، وهي طرقة سهلة النحو والإعراب ليس فيها تكلفات البصرين، وإن كان مذهب البصريين أدق وأعمق، ولكن من يصعب عليه النحو فإن مذهب الكوفيين أسهل وأوسع، وبعضهم يقول: {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا} يعني: أن يفعل بوالديه ما يَحسُن، هذا قال به الزجاج، أن يفعل بوالديه ما يحسن، وبعضهم يقول: "حسناً" هي صفة لموصوف محذوف يعني ووصيناه أمراً ذا حسن، وصيناه حسنه، حسنا: يعني أمراً ذا حسن، وبعضهم يقول: هذا الفعل "وصى" مضمن معنى فعل آخر، والتضمين أن يُضمَّن فعل معنى فعل آخر يتناسب مع ما بعده في التعدية والإعراب، والمعنى هنا: وصينا قالوا مضمن معنى فعل آخر يعني في آخره فعل آخر دل عليه، يعني ألزمناه حسنا بحيث إن وصيناه حسناً قد لا يتضح فيها المعني، وصينا مضمن معنى فعل آخر يتناسب مع ما بعده، وصيناه أي ألزمناه حسناً، وهذه على كل حال طريقة معروفة سبق الكلام عليها، وبعضهم يقول: هو منصوب بنزع الخافض، وصيناه بحسن يعني بإحسان، فلما حذف حرف الجر انتصب، قال: وصيناه حسنا، والأصل وصيناه بحسن، وبعضهم يقول: أصل "حسنا" مصدر

لفعل محذوف، {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ} يحسن حسنا مصدر لفعل محذوف، لاحظ القول الأول الذي ذكرناه أنه نعت لمصدر، وصينا الإنسان بوالديه حسنا.

ولاحظ هنا أنه قال: فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان إلى أن قال: الوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق، هذا من باب ذكر بعض وجوه الإحسان من قبل الوالدين للولد، وذلك من موجبات البر، ومعلوم أن ذلك لا يختص بما ذكر يعني الوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق، فلو كان الوالد لا ينفق -ترك الولد وترك أمه وما أنفق عليه، أو كان معهما ولكن الأم هي التي تتولى الإنفاق بسبب فقره والأم غنية، أو نحو ذلك- فلا يقال: ضاع حق الأب، فالوالد هو سبب وجوده قبل كل شيء بصرف النظر عن قضية الإنفاق وجدت أو لم توجد فإن ذلك يضاعف الحق ويعظم به، كلما كان الأب الوالد أكثر قياماً بحقوق الولد كالتسمية، أو اختيار الأم أو الإنفاق والتربية والرعاية إلى آخره كلما كان البر آكد وأعظم، فهناك قدر واجب من البر، وهناك قدر مستحب، فالبر معنى كلي يتفاوت في أفراده وأبعاضه على مراتب، كما يقال في الإيمان والعلم والصبر ونحو ذلك، فهناك قدر واجب ولو كان الأب لا يحسن تربيته ولم يحسن إليه ولم ينفق عليه، فهو سبب جوده، والأم بالإشفاق، فلو كانت الأم لا تشفق فهو مأمور ببرها، يكفي أنها سبب أيضاً لوجوده بالحمل، ولو ماتت أمه أثناء الولادة فهو مأمور ببرها بعد موتها بالدعاء لها إن كانت مسلمة، وصلة أهل ودها والرحم وما أشبه ذلك، هذا ما يتعلق بالحافظ ابن كثير -رحمه الله.

ثم إن الله -تبارك وتعالى- قال: {وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} [سورة لقمان:١٥] لاحظ هنا ذكر المجاهدة ومع ذلك يأمره بالإحسان إليهما، فإن مجاهدتهما له بالإشراك تدل على أنهما على الإشراك، وليس ذلك فحسب، بل يأمرانه بالإشراك، بل هناك مجاهدة مطالبة بحثٍّ وقوة ومراجعة بهذا الشأن، ومع ذلك يأمره بالإحسان إليهما بهذه الصيغة "حُسنا"، فكيف إذا كان الوالد مشركاً وكان عاصياً في شركه؟، كيف لو كان مشركاً ولم يأمره بشيء من الشرك؟ كيف لو كان الوالد من أهل الصلاح والخير والدين؟ فهذا أولى وآكد، ولكن كثيراً من الناس يغفلون عن هذا كله، ربما رأى من أبيه شيئاً من التقصير فضيع حقه وبره، قد يكون الولد فيه دين وإقبال على الله -تبارك وتعالى- ولكنه يضيّع في هذه القضية التي يذكرها الله بعد حقه، والعقوق من أكبر الكبائر، فإذا قيل له ذلك: ذكر بعض الذنوب والسيئات التي يقارفها أبوه، وهذا لاشك خطأ، ويكفي هنا ذكر المجاهدة على الشرك ومع ذلك {وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} ما ليس لك به علم: لاشك أن كل ما يكون من صور الإشراك فذلك لا حقيقة له؛ لأن الله لا شريك له، فمن اتبع شيئاً من هذا فهو متبع ما ليس له به علم، وهذه قضية محققة، كل من ادعى مع الله شريكاً أو صرف شيئاً من العبادة لغير الله -عز وجل- فهو متبع ما ليس له به علم؛ ولهذا في قوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [سورة الإسراء:٣٦]، يعني لا تتبع ما ليس لك به علم، فيدخل في ذلك دخولاً أولياً الإشراك بالله -عز وجل- عبادة غير الله -تبارك وتعالى- {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} [سورة المؤمنون:١١٧] ما يوجد أحد به برهان، فذلك لبيان الحال والواقع على ما هو عليه.

وهنا قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع مَن أحب، أي حباً دينياً**" هذا القيد الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا يقصد أن الحب الذي لا يكون دينياً لا يؤاخذ عليه الإنسان، ولا يقال فيه: فإن الإنسان يحشر مع من أحب لو كان ذلك المحبوب كافراً، ولهذا كثير من الناس يستشكل في باب الولاء والبراء مسألة المحبة للكافر، هل محبة الكافر بمجردها تكون من موالاته أو لا؟ هذا يلتبس، والله -تبارك وتعالى- يقول: {**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**}[سورة المجادلة:٢٢] ولم يقل: يحبون وإنما قال: {**يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**} فالمودة أخص من المحبة، فالمودة لا تصلح للكافر، وهي نوع من موالاته.

وأصل مادة الولاء تدل على القرب، يقول هذا يلي هذا، فالموالاة فيها هذا المعنى: تقريب الكافر، تقديم الكافر على المسلمين، وإيثاره عليهم فهنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: المحبة الدينية، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن محبة الكافر لا لدينه أن ذلك ليس من الموالاة، وأن ذلك لا يقال: إنه حرام؛ لأن المحبة أنواع: منها ما يكون من قبيل المحبة الطبيعية بين الناس العادية، مثل محبة الوالد لولده، ومحبة الولد لوالده، ومحبة الرجل لزوجته، والإنسان يجوز له التزوج بالكتابية، ولا يقال له: يتزوج من الكتابية لكن لا يحبها، فهو ما تزوجها إلا لأنه يحبها، و لا يقال: تزوجْها وأبغِضْها لأنها كافرة، وإنما يقال له: لا تحبها لدينها، ولا يجوز أن تتولاها ولو كانت أقرب قريب، كما في قوله تعالى: {**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ**} [سورة التوبة:٢٤]، فهنا لا تكون محبة الكافر بحيث إنها تزاحم محبة الله، لا يجوز أن يحب أحداً سوى الله -تبارك وتعالى- محبة تزاحم محبة الله، إن كانت محبة الأموال، أو غير ذلك، لكن الموالاة هي التى تحرم، ولا يجوز للمسلم أن يوادّ أعداء الله -تبارك وتعالى-، والمودة أخص من المحبة، ولذلك كان بعض السلف يقول: " اللهم لا تجعل لصاحب بدعة عليّ يداً"؛ لأن النفس مجبولة على محبة من أحسن إليها، فإذا وُجد كافر أحسن إليه، أو صاحب بدعة مغلظة، أو نحو ذلك أحسن إليه فإن قلبه قد يحبه، وبعض الناس يسأل ويقول: لي صديق كافر فيه صفات جميلة، وفيه صفات طيبة، كالوفاء، والصدق، والكرم، وحسن الخلق، صاحب معروف، وإحسان، وقلبي يحبه كصديق يجوز أو لا؟ وهل هذا موالاة للكافرين؟ فالجواب: هذا ليس بمحرم بمجرده، لكن قد ترتقي هذه المحبة إلى مراتب تصير إلى حال من الموالاة، فهذا لا يجوز، والمقصود أن هذا هو المراد بقول ابن كثير -رحمه الله-: أي حباً دينياً، يريد أن يقول: إن المحبة التي لا تجوز هي حب الكافر لدينه، و كثيراً ما يلتبس هذا المعنى، وأظن أن هذا هو الوسط بين من يقول: يجوز موالاة الكفار غير المحاربين، من الناس من يقول هذا وللأسف، يقوله بعض المنسبين للعلم وهذا غير صحيح، ولا يوجد في الكتاب والسنة ما يدل على هذا التقييد، فالكافر لا يجوز موالاته، وإنما ذكر الله -تبارك وتعالى- البر والاقساط {**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ**} [سورة الممتحنة:٨]، يعني الإحسان والمصانعة

والتعامل معهم بشتى المصالح، ولهذا قال: {وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} عداه بإلى لأنه مضمن معنى الإفضاء "تفضوا إليهم"، يعني يكون بينك وبينهم اشتراك في مصالح تجارية، وغير ذلك، فالبر والإقساط غير الموالاة، والموالاة لا تجوز بحال من الأحوال، لا للمحاربين ولا لغير المحاربين، ولهذا أهل السنة يقولون: الولاء والبراء يتجزأ وينقسم والكافر ليس له شيء من هذا، والمؤمن كامل الإيمان له الولاء كله، والفاسق صاحب البدعة يعطى من الولاء بحسب حاله، حسب إيمانه، ويكون له من البراء بحسب ما عنده من الانحراف والمعصية أو البدعة ونحو ذلك، وهذا هو الصحيح، خلافاً لمن إذا كره أحداً أو رأى عليه مخالفة فإنه يتبرأ منه براءة كاملة، ويتعامل معه أحياناً أعظم مما يتعامل مع اليهود والنصارى كما يقول، هذا لا يجوز، هذا خلل في العقل، وخلل في العلم، وخلل في الدين هذه الثلاث معاً غالباً ما تكون مجتمعة، فتصدر مثل هذه الأشياء التي أحياناً لا تصح أن تصدر من إنسان يعرف ما يخرج من رأسه.

وقوله: {لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ} [سورة العنكبوت:٩] يعني في جملة الصالحين.

وللحافظ ابن القيم -رحمه الله- على هذه الآيات كلام جيد قال -رحمه الله-: " فذكر سبحانه في هذه السورة أنه لابد أن يمتحن خلقه، ويفتنهم ليتبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده ممن يكفره، ويعرض عنه ويعبد غيره، وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل، وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا وهم الرسل وأتباعهم وعاقبة أمرهم، وما صاروا إليه"[٢].

ذكر في الآيات خبر نوح -صلى الله عليه وسلم-، وذكر خبر إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- فهؤلاء أئمة الممتحنين ذكرهم كأمثلة يأتسى بهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وأهل الإيمان، فنوح -عليه الصلاة والسلام- قضى مدة طويلة ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهو يدعوهم إلى الإيمان ومع ذلك هم كانوا في غاية الإصرار على الكفر، فهذه المدة التي قضيتها مع قومك يا محمد -صلى الله عليه وسلم- لا تساوي شيئاً بالنسبة للمدة التي قضاها نوح -عليه الصلاة والسلام- فيكون ذلك حافزاً على الصبر.

وقال الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: "وافتتح بالإنكار على من يحسب أنه يتخلص من الامتحان والفتنة في هذه الدار إذا ادعى الإيمان، وأن حكمته سبحانه وشأنه في خلقه يأبى ذلك، وأخبر عن سر هذه الفتنة والمحنة وهو تبيين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبل وقوعه، ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزي العباد بمجرد علمه فيهم، بل بمعلومه إذا وجد، وتحقق، والفتنة هي التي أظهرته، وأخرجته إلى الوجود، فحينئذ حسن وقوع الجزاء عليه، ثم أنكر سبحانه على من لم يلتزم الإيمان به، ومتابعة رسله خوف الفتنة والمحنة التي يمتحن بها رسله وأتباعهم ظنه وحسبانه أنه بإعراضه عن الإيمان وتصديق رسله يتخلص من الفتنة والمحنة، فإن بين يديه من الفتنة، والمحنة، والعذاب، أعظم وأشق مما فرّ عنه، فإن المكلفين بعد إرسال الرسل إليهم بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنت، وإما أن لا يقول، بل يستمر على السيئات، فمن قال: آمنت امتحنه الرب تعالى وابتلاه؛ لتتحقق بالإيمان حجة إيمانه وثباته عليه، وأنه ليس

---

٢ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم الجوزيه (٢٤٥).

بإيمان عافية، ورخاء فقط، بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء، ومن لم يؤمن فلا يحسَب أنه يُعجز ربه تعالى ويفوته، بل هو في قبضته وناصيته بيده، فله من البلاء أعظم مما ابتلى به من قال: آمنت، فمن آمن به وبرسله فلابد أن يبتلي من أعداء رسله بما يؤلمه، ويشق عليه، ومن لم يؤمن به وبرسله فلابد أن يعاقبه، فيحصل له من الألم والمشقة أضعاف ألم المؤمنين، فلابد من حصول الألم لكل نفس مؤمنة أو كافرة، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا أشد، ثم ينقطع، ويعقبه أعظم اللذة، والكافر يحصل له اللذة، والسرور ابتداء ثم ينقطع، ويعقبه أعظم الألم والمشقة، وهكذا حال الذين يتبعون الشهوات، فيلتذون بها ابتداء، ثم تعقبها الآلام بحسب ما نالوه منها، والذين يصبرون عنها ينالون الألم بفقدها ابتداء، ثم يعقب ذلك الألم من اللذة والسرور بحسب ما صبروا عنه، وتركوه منها، فالألم، واللذة أمر ضروري لكل إنسان، لكن الفرق بين العاجل المنقطع اليسير، والآجل الدائم العظيم بون، ولهذا كان خاصة العقل النظر في العواقب والغايات، فمن ظن أنه يتخلص من الألم بحيث لا يصيبه ألبته فظنه أكذب الحديث، فإن الإنسان خلق عرضة للذة، والألم، والسرور، والحزن، والفرح، والغم، وذلك من جهتين: من جهة تركبه وطبيعته وهيئته، فإنه مركب من أخلاط متفاوتة متضادة يمتنع أو يعز اعتدالها من كل وجه، بل لابد أن يبغي بعضها على بعض، فيخرج عن حد الاعتدال، فيحصل الألم، ومن جهة بني جنسه فإنه مدني بالطبع لا يمكنه أن يعيش وحده، بل لا يعيش إلا معهم، وله ولهم لذّات ومطالب متضادة ومتعارضة لا يمكن الجمع بينها، بل إذا حصل منها شيء فات منها أشياء، فهو يريد منهم أن يوافقوه على مطالبه وإرادته، وهم يريدون منه ذلك، فإن وافقهم حصل له من الألم والمشقة بحسب ما فاته من إرادته، وإن لم يوافقهم آذوه، وعذبوه، وسعوا في تعطيل مراداته كما لم يوافقهم على مراداتهم"[٣].

يعني: هو يريد أن يقول: هناك ألم لابد أن يحصل في هذه الحياة الدنيا في جهة من جهات متعددة، فهذا ألم واقع في الدنيا، وحاصل ولابد، وهناك ألم آخر في الآخرة، فيقول: إن الآم في الحياة الدنيا كما قال الله -تبارك وتعالى-: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} [سورة البلد:٤]، فهو يترقب ما لم يكن، فيحصل له بذلك ألم، وكذلك يحصل له الألم من جهتين: الألم الواقع والذي هو المترقب، هناك ألم مترقب، وهناك ألم حاصل، الحاصل من جهتين: الأولى ما كان في نفسه، بمعنى أن الإنسان مركب من أخلاط، فإذا طغى الواحد منها على الآخر حصل الألم، إما الألم الحسي، أو الألم المعنوي، والألم الحسي مثل لو أنه اختل مزاج البدن يعني عافية البدن المادية المحسوسة فيحصل له ألم يؤلمه، هذا يؤلمه، وهذا الجزء يؤلمه، وبطنه، إلى آخره، وهناك ألم معنوي الذي يسمونه النفسي هو متصل بهذه الأخلاط، الذي يسميه القدماء بغلبة السوداء مثلاً، فإذا اختلت هذه الأشياء التي هي في الإنسان -هذه الاخلاط- أصبح عنده كآبة، أصبح عنده حزن، وغيره، وهذا الألم النفسي، وهناك ألم من الخارج، بمعنى أن هذا الإنسان بطبعه لابد أن يخالط الناس، وسيأتيه بسبب هذه المخالطة صداع كثير، فهو يحتاج أن يراعي هذا، ويحتاج أن يرضي هذا، وهذا يسيء إليه بكلمة، وهذا

---

٣ - المصدر السابق (٢٤٥-٢٤٦).

يسيء إليه، وهذا لم يسلم، ولهذا لابد من وقوع الألم في هذه الحياة الدنيا، فمن أراد أن يتوقى ما قد يلحقه بسبب تدينه، واستقامته على الصراط المستقيم، فيرضي الناس بسخط الله -تبارك وتعالى- فإنه يكون قد دفع الأذى والألم العاجل، مع أنه لابد له من ألم في الدنيا، وعلى الآجل الدائم المستمر الذي يلحقه في الآخرة بعذاب النار، والخلود فيها مع ما يحصل له في الدنيا من أنواع الآلام من الجهات التي ذكرتها، وغيرها باعتبار أن الإنسان حينما يعرض عن ذكر الله -عز وجل- فإن له معيشة ضنكا إلى آخره، فالحل هو التمسك بالوحي.

قال الله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} [سورة الأحزاب:١]، {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} [سورة الأحزاب:٢]، {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [سورة الأحزاب:٣] هذه الوصايا الثلاث في أول الاحزاب، ما يوجد حل ولا طريق غير هذا الألم، فليكن في الله، وفي ذات الله، والله المستعان، يعني أسوء ما يكون أن الإنسان يؤذَى، ولربما يقتل وهو على غير الصراط المستقيم هذا أصعب شيء، تجد بعض الناس يلحقه الأذى والابتلاء ولربما فقد حياته على باطل.

وقال -رحمه الله-: "فيحصل له من الألم والتعذيب بحسب ذلك، فهو في ألم، ومشقة، وعناء، وافقهم أو خالفهم، ولا سيما إذا كانت موافقتهم على أمور يعلم أنها عقائد باطلة، وإرادات فاسدة، وأعمال تضره في عواقبها، ففي موافقتهم أعظم الألم، وفي مخالفتهم حصول الألم، فالعقل والدين والمروءة والعلم تأمره باحتمال أخف الألمين؛ تخلصاً من أشدهما، وبإيثار المنقطع منهما؛ لينجو من الدائم المستمر، فمن كان ظهيراً للمجرمين من الظلمة على ظلمهم، ومن أهل الأهواء والبدع على أهوائهم وبدعهم، ومن أهل الفجور والشهوات على فجورهم وشهواتهم ليتخلص بمظاهرتهم من ألم أذاهم أصابه من ألم الموافقة لهم عاجلاً وآجلا أضعاف أضعاف ما فرّ منه"[٤].

وجه ذلك أن بعض الناس يكون في بيئة فيها بدع وانحرافات وهو يعلم أن هذه بدعاً ومخالفات وانحرفات وشركيات أحياناً، ويقول: هذا مجتمعي هذه بيئتي هذا قومي لا أستطيع أن أخالفهم يعادونني ونحو ذلك فهو في الواقع قد ضل الطريق، وبعض الناس قد لا يكون من هذا القبيل -بدع وشركيات أونحو ذلك- لكن كثير من الشباب لربما يقول: إن أبناء عمي وأقاربي ونحو ذلك غير متدينين، وإني أخالطهم كثيراً فيحصل لي بسبب ذلك النقد واللمز وما أشبه ذلك بسبب استقامتي، وبسبب هيئتي ومظهري ونحو ذلك يحصل لي بسبب هذا إحراج وألم ومضايقات، فيقال: إن وافقتهم حصل لك أضعاف ذلك، وعندما يؤثر الإنسان ما عند الله -عز وجل- ويرجو مرضات ربه -جل جلاله- يعوضه الله -تبارك وتعالى-، كما سيأتي في ثنايا هذه السورة، إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- مما قال -على أحد القولين-: {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي} [سورة العنكبوت:٢٦]، فالله - تبارك وتعالى- وهب له الأولاد إسحاق ويعقوب كما وهب له إسماعيل -عليه الصلاة والسلام- وجعل في ذريته النبوة، والكتاب، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ

---

٤ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم الجوزيه (٢٤٦).

{وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} [سورة مريم:٤٩]، عوضه الله -عز وجل- بهؤلاء الأولاد والذرية الذين تقر بهم عينه وينسونه الأهل والوطن والعشيرة.

وقال -رحمه الله-: "وسنة الله في خلقه أن يعذبهم بإنذار من إيمانهم، وظاهرهم وإن صبر على ألم مخالفتهم وجانبتهم أعقبه ذلك لذة عاجلة وآجلة تزيد على لذة الموافقة بأضعاف مضاعفة، وسنة الله في خلقه أن يرفعه عليهم ويذلهم به بحسب صبره وتقواه وتوكله وإخلاصه"[٥].

هذه جملة مهمة جداً، وسنة الله -الأمر الذي يحصل ويتكرر- أن الله -تبارك وتعالى- يذلهم له بحسب صبره وتقواه ونصره، هذا الذي يتململ بسبب مخالفتهم وانتقاصهم له وتعييرهم أحياناً، كثير من الناس قد ينحرف فترى بعض الشباب يشتكي من مثل هذا، وانحرف بسبب البيئة والأقارب، فهذا المعنى مهم جداً.

وقال -رحمه الله-: "وإذا كان لابد من الألم والعذاب فذلك في الله وفي مرضاته، ومتابعة رسله أولى وأنفع منه في الناس ورضائهم وتحصيل مراداتهم، ولما كان زمن التألم والعذاب طويلاً فصبره طويل، فأنفاسه ساعات، وساعاته أيام، وأيامه شهور وأعوام سلّى سبحانه الممتحنين فيه بأن ذلك الابتلاء آجلا ثم ينقطع، وضرب لأهله أجلا للقائه يسليهم به، ويشكر نفوسهم ويهون عليهم أثقاله، فقال: {مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة العنكبوت:٥]، فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه وأجل لقاء المبتلى سبحانه وإثباته هان عليه ما هو فيه وخف عليه حمله"[٦].

فلما كانت ساعات الابتلاء طويلة الساعة كيوم واليوم كشهر والشهر كسنة، سلّاهم تبارك وتعالى فقال: {مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} فيكون ذلك تسلية لهم، تخفيفاً وتهويناً عليهم؛ ولذلك تجد الإنسان الذي يعاني و يكتئب يلجأ إلى النوم مع أن بعض الأطباء يقول: إن هذا لا يصح ولا يحسن وإنه يضره، والواقع أنه ليس كذلك -والله أعلم-، يلجأ إلى النوم ليغيب عن عالمه مثل الرجال الكبار يذهبون إلى المخدرات -نسأل الله العافية- فهذا يلجأ إلى النوم ويغيب ويقصر المدة.

ثم قال - رحمه الله -: "ثم لما كان ذلك لا يحصل إلا بمجاهدة للنفس، وللشيطان، ولبني جنسه، وكان العامل إذا علم أن ثمرة عمله، وتعبه يعود عليه وحده لا يشكره فيه غيره كان أتم اجتهاداً، وأوفر سعياً، فقال تعالى: {وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [سورة العنكبوت:٦]، وأيضا فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة، والصبر، والاحتمال يعود على الله سبحانه؛ فإنه غني عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً منه عليهم، بل أمرهم بما يعود نفعه، ومصلحته، عليهم في معاشهم، ومعادهم، ونهاهم عما يعود مضرته، وعتبه عليهم في معاشهم، ومعادهم، فكانت ثمرة هذا الابتلاء، والامتحان مختصة بهم، واقتضت حكمته أنْ نصب ذلك سبباً مفضياً إلى أن يميز الخبيث من الطيب والشقي من الغوي، ومن يصلح له ممن لا يصلح، قال تعالى: {مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ

---

٥ - المصدر السابق (٢٤٦).

٦ - المصدر السابق (٢٤٦).

أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [سورة آل عمران:١٧٩]، فابتلاهم سبحانه بإرسال الرسل إليهم بأوامره، ونواهيه، واختياره، فامتاز برسله طيبهم من خبيثهم، وجيدهم من رديئهم فوقع الثواب والعقاب على معلوم أظهره ذلك الابتلاء والامتحان، ثم لما كان الممتحن لابد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به وعده سبحانه أن يتجاوز له عن ذلك ويكفره عنه؛ لأنه لما أمر به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله"[٧].

وقال -رحمه الله-: " ثم أخبرهم أن مدة الابتلاء والامتحان في هذه الدار قصيرة جداً بالنسبة إلى دار الحيوان والبقاء، ثم ذكر سبحانه عاقبة أهل الابتلاء ممن لم يؤمن به، وأن مقامهم في هذه الدار تمتع، وسوف يعلمون عند النقلة منها ما فاتهم من النعيم المقيم وما حصلوا عليه من العذاب الأليم، وذكر عاقبة أهل الابتلاء ممن آمن به وأطاع رسله وجاهد نفسه وعدوه في دار الابتلاء ما به هاديه وناصره، فأخبر سبحانه أن أجل عطاء وأفضله في الدنيا والآخرة هو لأهل الابتلاء الذين صبروا على ابتلائه، وتوكلوا عليه، وأخبر أن أعظم عذابه وأشقه هو للذين لم يصبروا على ابتلائه وفروا منه وآثروا النعيم العاجل عليه، فمضمون هذه السورة هو سر الخلق والأمر فإنها سورة الابتلاء والامتحان وبيان حال أهل البلوى في الدنيا والآخرة، ومن تأمل فاتحتها ووسطها وخاتمتها وجد في ضمنها أن أول الأمر ابتلاء وامتحان، ووسطه صبر وتوكل، وآخره هداية ونصر، والله المستعان"[٨].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [سورة العنكبوت:١٠-١١].

يقول تعالى مخبرًا عن صفات قوم من الذين يدعون الإيمان بألسنتهم، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام؛ ولهذا قال: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ}.

قال ابن عباس: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله. وكذا قال غيره من علماء السلف. وهذه الآية كقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ...} إلى قوله: {ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} [سورة الحج:١١-١٢].

ثم قال: {وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ} أي: ولئن جاء نصر قريب من ربك -يا محمد- وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم: إنا كنا معكم، أي: إخوانكم في الدين، كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة النساء:١٤١]، وقال تعالى: {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا

---

٧ - المصدر السابق (٢٤٦).

٨ - المصدر السابق (٢٤٧).

أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [سورة المائدة:٥٢].

وقال تعالى مخبرا عنهم هاهنا: {وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ}، ثم قال تعالى: {أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ} أي: أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم، وما تكنُّه ضمائرهم، وإن أظهروا لكم الموافقة؟

وقوله: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} أي: وليختبرَنّ الله الناس بالضراء والسراء، ليتميز هؤلاء من هؤلاء، ومن يطيع الله في الضراء والسراء إنما يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [سورة محمد:٣١]، وقال تعالى بعد وقعة أحد، التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} الآية [سورة آل عمران:١٧٩].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ} [سورة الحج:١١] هذا يصدق على ضعفاء الإيمان، وعلى من في قلبه مرض، كما إن ذلك -أيضاً- يصدق على المنافقين، وقوله -تبارك وتعالى- في هذه السورة -والسورة مكية-: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ}، ذكر المنافقين في هذه السورة، والمشهور جداً الذي لم أقف إلى ساعتي هذه على من ينبه على هذا المعنى وهو أن المشهور أن النفاق إنما وجد في المدينة، ويذكر أهل العلم عادة أن ذلك وقع بعد غزوة بدر، فقوي الإسلام، وظهر المسلمون، ويذكرون ما وقع من كلام عبد الله بن أُبي رئيس المنافقين أنه قال: إني أرى أمراً قد توجه، فأمر أصحابه أن يدخلوا فيه ظاهراً، وأخبرنا الله -تبارك وتعالى- عندما قال اليهود: {آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة آل عمران:٧٢] يعني إيمان نفاق، فهذا هو المشهور جداً، لكن هذه الآية تبين أن النفاق له وجود في مكة، ومما يدل على وجودة مبكراً ما ذكره الله -تبارك وتعالى- عند الكلام على غزوة بدر في سورة الأنفال: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ} [سورة الأنفال:٤٩]، فالذين في قلوبهم مرض: من أهل العلم من يقول: هم المنافقون، وأن هذا من قبيل تتابع الأوصاف {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى:١-٤]، أن هذا لموصوف واحد، فالمنافقون والذين في قلوبهم مرض هم شيء واحد، ولاشك أن المنافقين في قلوبهم مرض، ومن أهل العلم من يقول: إن ذكرهم على سبيل العطف على المنافقين، إن الذين في قلوبهم مرض يعني هم ضعفاء الإيمان، وأما في سورة الأحزاب في قوله تعالى: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [سورة الأحزاب:٣٢]، فالمرض هناك الميل المحرم إلى النساء، فهذه المسألة -أعني النفاق- تحتاج إلى تحرير، ومزيد من التأمل، وتتبع النصوص الواردة فيها، والدراسة، فنحن نعلم أن النفاق منه ما هو نفاق اعتقادي، وهناك نفاق عملي، نفاق اعتقادي، ونفاق عملي، النفاق الاعتقادي: أن يظهر الإيمان ويبطن الكفر، والنفاق العملي: ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: ((ثلاث من كن فيه كان منافقاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من

النفاق حتى يدعها))، وذكر هذه الأوصاف: ((إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان))[٩]، فهذا نفاق عملي، إذا تأملت هذا، ونظرت فيما جاء من النصوص في الباب من الآيات، والأحاديث، والآثار المنقولة عن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- تجد أنهم يقولون لمن صدر منه شيء أحياناً مع الأفعال التي لا تتفق مع الإيمان: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، بناءً على موقف، نافقَ يا رسول الله، نافقَ فلان، وحنظلة قال عن نفسه: نافق حنظله[١٠]، لما رأى تغير حاله حينما يكون بحضرة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وحينما يرجع يعافس أهله رأى الفرق، فقال: نافق حنظلة، وقصة حاطب لما كتب للمشركين حكم عليه عمر -رضي الله تعالى عنه- بالنفاق[١١]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر الفتن في آخر الزمان قال: ((يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا))[١٢]، وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - لما ذكر الفتن، وما يعقبها، أو ما يحصل من جراء ذلك ذكر أنه يظهر النفاق، والعلماء من المؤرخين حينما يذكرون بعض الحوادث، والوقائع العظام، والأمور التي حصلت من حروب، وأشياء، وإغارة العدو على المسلمين تجد أنهم يذكرون أحياناً النفاق بعدها، يقولون: فنجم النفاق، هؤلاء ناس من المسلمين، وبعض هؤلاء أحياناً من أهل العلم، لكن يقول: فنجم النفاق، ظهر النفاق، بدأت تطلع أشياء ما كانت ظاهرة من قبل، هذا يتكلم بكلام ما يتفق مع الإمام، لا يقوله إنسان مسلم أبداً، هذا يصرح بتصريحات غريبة ما كان يسمعونها، ويظهر على فضائية، ويذكر فيها أشياء تدل على تحولات، نجم النفاق، ظهر النفاق، وبعضهم بدأ يصانع العدو، ويدل على عورات المسلمين؛ ليتخذ عندهم يداً، هذا معنى نجم النفاق، هذا بدأ يتخلى عن مبادئه وعقيدته، هذا بدأ ينتقد أهل الإيمان، ويقع فيهم، فهذا كله من النفاق، وهذا يحصل في أوقات الشدائد، في أوقات الابتلاء، هذا معنى قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} الابتلاءات التي تحصل تظهر فيها معادن الناس، وتظهر فيها المخبآت، ويظهر فيها الثبات على الحق، وعلى الدين، تظهر هذه الأشياء في أوقات الشدائد، في أوقات الابتلاء، فهذا الموضوع -موضوع النفاق- يحتاج إلى مزيد من التحرير، والدراسة، مع أن المتوهم أن القضية واضحة، وأن النفاق هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وأن هذا وجد، لماذا وجد في مكة؟ لا، يوجد في مكة، يوجد أناس دخلوا في الإيمان دخولاً سطحيا، ولكن في قلوبهم لربما من الواردات والشكوك ما يمكن أن يحصل معه التحول إلى الكفر لأدنى ابتلاء، فهو إن رأى الحال على ما يسر استقام سيره، واستمر، وإن

---

٩ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، برقم (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم (٥٩).

١٠ - رواه مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا، برقم (٢٧٥٠).

١١ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، برقم (٤٠٢٥)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أهل بدر -رضي الله عنهم- وقصة حاطب بن أبي بلتعة، برقم (٢٤٩٤).

١٢ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، برقم (١١٨).

رأى ما يكره انقلب على وجهه، يعبد الله على حرف، الحرف: هو الطرف، كما نقول: فلان على حافة، العوام يقولون: فلان على جُريف -تصغير جرف- يعني مع أدنى شيء يسقط، فذكْرُ النفاق هنا مع ذكره في آية الانفال: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ} [سورة الأنفال:٤٩]، يدل على أن النفاق ما ظهر بعد غزوة بدر، كثر ودخل أناس يريدون بذلك حقن الدماء وإحراز الأموال، الآن المسلمون صار لهم قوة، لكن في مكة لم يكن هناك إحراز أموال، وحقن دماء يعني: يدخل من أجل أن يحرز ماذا؟ لا، لربما يدخل لأنه يميل إلى ذلك، لأنه يعتقد صدق النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن ذلك ضعيف جداً مع أشياء تساوره من قلق، ومن شكوك، فبمجرد وقوع الابتلاء اليسير يحصل له الانتكاسة، فالنفاق كان موجوداً بمكة، ولكنه لم يكن ظاهراً، والذي يبدو -والله تعالى أعلم- أنه كان بصورة إيمان هشٍّ، هذه الهشاشة لسبب أو لآخر، كأن يكون تابعَ فلاناً، وافق غيره في ذلك، لم يكن لديه من اليقين ما يكفي، الخوف غالب على قلبه، يخاف الناس كما يخاف الله، أو أكثر، فيبقى في حال من التردد، والاضطراب، والحيرة، ولذلك خرج جماعة مع المشركين ممن آمنوا ولم يهاجروا من أهل مكة، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا} [سورة النساء:٩٧]، فهؤلاء الناس أظهروا الإيمان في مكة، ولم يهاجروا -مع القدرة على الهجرة-، فهؤلاء خرجوا مع المشركين في غزوة بدر، فقُتل من قُتل منهم، فتوعدهم الله -عز وجل- بجهنم، بالنار، ادّعوا الإيمان، وخرجوا مع المشركين يقاتلون المسلمين، وإذا نظرتم إلى السيرة وجدتم مجموعة من الأسماء ممن كانوا بهذه المثابة ذكرهم ابن هشام وغيره، مثل هذا نستفيد منه هذا المعنى، وهو معنى كبير يستحق العناية، وموضوع النفاق يستحق دراسات وتأملاً، فكثير من الناس قد يخفى عليه حقيقته، وقد يقع فيه وهو لا يشعر، ولهذا كان أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ما منهم أحد إلا يخاف على نفسه النفاق، وعمر -رضي الله عنه- يسأل حذيفة بن اليمان: أَسَمّاني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منهم؟، وكان ينظر إلى من يصلي عليه حذيفة -رضي الله تعالى عنه-، ومن لا يصلي عليه، حتى يعرف هل هذا منافق أو لا، وموضوع النفاق موضوع دقيق قد يخفى، ولهذا جاء في الصحيحين مسلم وغيره لما صلى النبي -صلى الله عليه وسلم- في بيت أحد أصحابه -وهو عتبان- تكلموا على الرجل وأنه منافق، وكانت حجتهم في ذلك أن وجهه للمنافقين، ويرون إقباله على المنافقين، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن لهم أمراً آخر وهو أنه ((يبتغي بذلك وجه الله))[١٣]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- بين لهم هذا المعنى، وليست مجرد دعوى، لكن يبتغي بذلك وجه الله، فقد يحصل منه تصرفات هي من قبيل تصرفات المنافقين، وقد يحكم عليه بعضهم بالظاهر أن هذا من المنافقين، ولهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- ما أنكر عليهم، ولم يقل: هذه غيبة، ولا كيف حكمتم عليه؟ لكن بين لهم أمراً آخر خفي عليهم، وإلا فالفعل الظاهر منه أنه مع المنافقين، والإنسان -مع ضعف الإيمان- قد يتحول إلى منافق خالص، وقد يحصل له نوع نفاق،

---

١٣ - رواه البخاري، أبواب المساجد، باب المساجد في البيوت، برقم (٤١٥)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، برقم (٦٥٧).

-نسأل الله العافية-، والعجيب أن هذا في آية من كتاب الله -عز وجل- في آية الأنفال، ومع ذلك لا تكاد تجد من يذكر مثل هذا، وأن الموضوع أعمق مما لربما يسبق إلى أذهاننا ويتصور في الكثير من الأحيان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة العنكبوت من الآية (١٢) إلى الآية (٢٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاماً على عبده ورسوله نبيناً محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين وللمستمعين.

قال المصنف -رحمنا الله وإياه- في تفسير قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [سورة العنكبوت:١٢-١٣].

يقول تعالى مخبرا عن كفار قريش أنهم قالوا لِمَنْ آمن منهم واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا، {وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ} أي: وآثامكم -إن كانت لكم آثام في ذلك- علينا وفي رقابنا، كما يقول القائل: "افعل هذا وخطيئتك في رقبتي"، قال الله تكذيبا لهم: {وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} أي: فيما قالوه إنهم يحملون عن أولائك خطاياهم، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، قال الله تعالى: {وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [سورة فاطر:١٨]، وقال تعالى: {وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا. يُبَصَّرُونَهُمْ} [سورة المعارج:١٠-١١].

وقوله: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ}: إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم، وأوزارًا أُخَر بسبب مَنْ أضلوا مِنَ الناس، من غير أن ينقص من أوزار أولائك شيئاً، كما قال تعالى: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} الآية [النحل: ٢٥].

وفي الصحيح: ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، وَمَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه مِنَ الإثم مثل آثام مَنِ اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً))[١]، وفي الصحيح: ((ما قُتلت نفسٌ ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سَنّ القتل))[٢].

وقوله: {وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} أي: يكذبون ويختلقون من البهتان.

---

١ - رواه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، برقم (٢٦٧٤).

٢ - رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم -صلوات الله عليه- وذريته، برقم (٣٣٣٥)، ومسلم، كتاب القسامة، باب بيان إثم من سن القتل، برقم (١٦٧٧).

وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً عن أبي أمامة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بلغ ما أرسل به، ثم قال: ((إياكم والظلم، فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول: وعزتي لا يجوزني اليوم ظلم، ثم ينادي منادٍ فيقول: أين فلان ابن فلان؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال، فيُشخِص الناس إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدي الله الرحمن -عز وجل-، ثم يأمر المنادي فينادي من كانت له تِبَاعة -أو ظُلامة- عند فلان ابن فلان فهلمّ، فيقبلون حتى يجتمعوا قياما بين يدي الرحمن، فيقول الرحمن: اقضوا عن عبدي، فيقولون: كيف نقضي عنه؟ فيقول لهم: خذوا لهم من حسناته، فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى له حسنة، وقد بقي من أصحاب الظلامات، فيقول: اقضوا عن عبدي، فيقولون: لم يبق له حسنة، فيقول: خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه))[٣]، ثم نزع النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الآية الكريمة: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}.

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه ((إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال وقد ظلم هذا، وأخذ مال هذا، وأخذ من عرض هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا لم تبقَ له حسنة أُخِذ من سيئاتهم فطرح عليه))[٤].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ}، هذا أمر، وهو في معنى الشرط والجزاء، بمعنى إذا اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم، إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} إلى أن قال: {يَغْفِرْ لَكُمْ} [سورة الصف:١٠-١٢]، يعني: إن آمنتم، فذاك خبر مضمن معنى الشرط، وهذا أمر في معنى الشرط والجزاء، والمعنى ما ذُكر: إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، والأصل أنه لا أحد يحمل وزر أحد {وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ} [سورة فاطر:١٨]، {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} [سورة المدثر:٣٨]، والآيات في هذا كثيرة ومعروفة، وهنا ذكر الله أنهم يحملون أثقالهم وأحمالاً مع أثقالهم، وهذه الأثقال المقصود بها الأوزار فإنها تثقل كواهلهم، وذلك من عملهم؛ لأنهم الذين دعوا إلى هذا، وضللوا الناس، وصرفوهم عن الحق، وأغووهم فكان ذلك من جملة عملهم، ومن ثم فإنهم يحملون هذه الأوزار، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا في المظالم وأنه يطرح عليه، يؤخذ من حسناته ثم بعد ذلك..، هذا هو الشاهد، إذا فنيت هذه الحسنات طرح عليه من سيئاتهم، وهنا حمل أوزاراً لغيره في هذه الحالة، فهذا ليس من تأويل الآية، وإنما هو من جملة ما يذكر في هذا الباب مما هو خارج عن الأصل، يعني الأصل أنه لا يحمل أحد وزر أحد، لكن من تسبب في إضلال غيره فإنه يحمل وزراً كوزره؛ لأن ذلك من عمله، ومما يحصُل به حملُ الأوزار ما جاء في الحديث من حال أولائك الذين يظلمون الناس فتؤخذ حسناتهم، فإذا فنيت وبقي من المظالم فإنه يؤخذ من سيئاتهم فتطرح عليهم، فيكون بهذا يحمل من أوزارهم أيضاً، لكن هذا ليس المقصود،

---

٣ - رواه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٠٣٩/٩)، برقم (١٧١٨٦).

٤ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٨١).

يعني الحافظ ما أورده على أنه تفسير للآية؛ لأن هذه الآية قالوا لهم: {اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ} [سورة العنكبوت:١٢]، فهي في نوع خاص مما يحصل به حمل الأوزار، والله تعالى أعلم.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} [سورة العنكبوت:١٤-١٥].

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد -صلوات الله وسلامه عليه-، يخبره عن نوح -عليه السلام- أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلا ونهارًا، وسرا، وجهارًا، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فرارا عن الحق، وإعراضا عنه وتكذيباً له، وما آمن معه منهم إلا قليل؛ ولهذا قال: {فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} أي: بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار، فأنت -يا محمد- لا تأسف على مَنْ كفر بك من قومك، ولا تحزن عليهم؛ فإن الله يهدي مَنْ يشاء ويضل مَنْ يشاء، وبيده الأمر وإليه ترجع الأمور، {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ} الآية [سورة يونس:٩٦-٩٧]، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوّك، ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين.

وعن ابن عباس قال: بُعث نوح وهو لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين عاما، حتى كثر الناس وفشوا.

وقوله: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ} أي: الذين آمنوا بنوح -عليه السلام-، وقد تقدَّم ذكر ذلك مفصلاً في سورة هود، وتقدَّم تفسيره بما أغنى عن إعادته.

وقوله: {وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} أي: وجعلنا تلك السفينة باقية، إما عينها كما قال قتادة: إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق، كيف نجاهم من الطوفان، كما قال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} إلى قوله: {وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} [سورة يس:٤١-٤٤]، وقال تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [سورة الحاقة:١١-١٢]، وقال هاهنا: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ}، وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس، كقوله تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} [سورة الملك:٥].

أي: وجعلنا نوعها رجوماً، فإن التي يرمى بها ليست هي التي زينة للسماء، وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} [سورة المؤمنون:١٢-١٣]، ولهذا نظائر كثيرة.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} لما ذكر الله -تبارك وتعالى- في أول هذه السورة أمر الامتحان والابتلاء والفتنة {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} [سورة العنكبوت:٢-٣] ذكر مصداق ذلك ما وقع لهؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وما جرى لأقوامهم، فهذا نوح -صلى الله عليه وسلم- أول الرسل بقي في قومه هذه المدة الطويلة مع إصرارهم على التكذيب، بقي ألف سنة إلا خمسين عاماً، وذلك تسلية لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقد كان يلقى من قومه أذىً كثيراً، وكانت المدة التي بقيها النبي -صلى الله عليه وسلم- لا تذكر بالنسبة لتلك المدة الطويلة

التي بقيها نوح -عليه الصلاة والسلام-، فهذه سنته -تبارك وتعالى- الجارية في خلقه تجري على أشرف الخلق وأفضلهم وأكرمهم على الله -تبارك وتعالى-، وتجري على غيرهم، فيُفتن الناس بالرسل ويُبتلى الرسل -عليهم الصلاة والسلام- بالناس وبتكذيبهم وأذاهم وما إلى ذلك، وهكذا يفتن ويبتلى الغني بالفقير، والفقير بالغني، والصحيح بالمريض، والمريض بالصحيح، والعالم بالجاهل، والجاهل بالعالم، وما إلى ذلك، فهذه سنة الله -تبارك وتعالى- في هذا الخلق.

فهنا قال: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا} ما قال: لبث فيهم مثلاً تسعمائة وخمسين عاماً، وذلك -والله تعالى أعلم- أنّ ذِكرَ ذلك بطريق الاستثناء كما في هذا الموضع {أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا} أقوى في تحقيق العدد من غير زيادة ولا نقصان، يعني لربما يُذكر العدد ويكون فيه شيء من جبر الكسر ونحو ذلك كما هو معروف، لكن إذا جاء بطريق الاستثناء فإن ذلك يعني تحقيق العدد كما ذكر من غير زيادة ولا نقص {أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}، وهذا جواب عن سؤال لربما يرد على ذهن طالب العلم، لماذا لم يقل الله -عز وجل-: فلبث فيهم تسعمائة وخمسين سنة؟، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} هذا يدل على النتيجة بعد هذه المدة الطويلة أنهم كذبوا وكفروا فكان ذلك العقاب، والطوفان يقال لكل شيء يطوف بالناس من مطر أو خروج البحر -أو النهر- الذي يسمونه بالفيضان، أو اليوم ما يسمى بتسونامي أو نحو ذلك، فهذا كله مما يطيف بالناس هذه الإطافة فيحصل به الغرق والهلاك بالماء فإنه يقال له: طوفان، وبعضهم وسع المعنى فيه وقال: ذلك يشمل ما كان بموت، يعني الأوبئة والأمراض السارية التي تنتقل فيها العدوى بإذن الله -تبارك وتعالى- بين الناس فيموتون بسبب ذلك، فمثل هذا بعض أهل العلم يدخله في جملة الطوفان، وهكذا أيضاً ما يحصل من الموت العام بالقتل، يعني أنهم اعتبروا كل موت عام إما بمباشرة القتل، أو الوباء، أو كان ذلك بالماء النازل من السماء، أو كان ذلك بالماء الخارج من الأرض، ونحوه، فهذا كله يقال له: الطوفان، مع أنه في عرف الاستعمال يطلق على ما كان بالغرق إما بكثرة المطر أو بما كان من غيره، كما يحصل في فيضان الأنهار حينما تذوب الثلوج في وقت معين ثم بعد ذلك يكثر الماء في هذه الأنهار فتخرج على الناس، وهكذا حينما يحصل ذلك من البحر كما نشاهد في هذه الأيام، فهذا يقال له: طوفان، وهكذا حينما يخرج ذلك من باطن الأرض كالعيون التي تتفجر مثلاً، وهذا يحصل أيضاً بسبب الزلازل أحياناً، يحصل زلزال فتخرج عيون جديدة تتفجر وتجري أشياء وأنهار لم تكن موجودة من قبل، وقد يجتمع عليهم ذلك، والله -تبارك وتعالى- أخبر عن قوم نوح هؤلاء أن السماء أمطرت مطراً منهمراً، وأن الله -تبارك وتعالى- فجر الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر، اجتمع هذا الماء، وهذا الماء فحصل بسبب ذلك الغرق، والله المستعان.

ولهذا بعضهم فسر الطوفان بالغرق، وهو تفسير له بما يشبه النتيجة والأثر، وبعضهم قال: هو المطر، أخذه من الطوفان، وكأنه تفسير له ببعض صوره، يعني بالمثال، ببعض صوره، ويكون ذلك بالماء الذي يغمرهم سواء كان بالمطر أو بغيره، الماء الكثير الذي يغمر يقال له: طوفان، أخذهم الطوفان والله -تبارك وتعالى- أخبر عن فرعون وقومه أنه أرسل عليهم الطوفان أيضاً، والمقصود به فيضان النيل، -والله أعلم-، فيهلك زروعهم وأراضيهم، ويحصل لهم بسبب ذلك ما لا يخفى، وإن لم يحصل لجميعهم بذلك الغرق كما هو

مشاهد في الطوفان الذي يحصل في أي وقت من الأوقات، لكن ذلك يكون عذاباً مرسلاً على هؤلاء المكذبين، ولهذا تجد الذين يقع لهم هذا سواء بفيضان الأنهار أو كان بغيره أنه يقع لهم بسببه من الأذى والعذاب ما لا يُقادَر قدره، تهلك بسبب ذلك زروعهم ومواشيهم، بل إن ما يعانونه بعده أشد مما يلاقونه منه حال المباشرة، يعني هم حينما يبدأ الطوفان يزول ويتقشع عنهم الماء تبقى الآثار المدمرة بعد ذلك، تخرج أشياء من الحشرات ومن الأمور المؤذية، والروائح المنتنة، ويحصل أيضاً بسبب ذلك آثار في دورهم وأثاثهم، ونحو ذلك إذا دخل بيوتهم بحيث إنها لا تصلح للاستعمال، بل تبقى عبئاً كبيراً يثقل كواهلهم، يحتارون كيف يتخلصون منه ويعيدون الأشياء، بل حتى في السيول التي تقع كما حصل في جدة والذي حدث فيها فهذا نوع طوفان، وانظروا إلى حال بيوتهم كيف أصبح الوحل يغمرها ويلوث أثاثهم، وما لديهم من ممتلكات ونحو ذلك، وانظروا حال السيارات وكيف تبقى كأنها أكداس لا تصلح للانتفاع، ثم بعد ذلك ما يحصل عادة في الطوفان من اختلاط المياه الصالحة للشرب بالمجاري ويفيض ذلك جميعاً، وتنتشر الأوبئة، تنتشر الأمراض، وهذا معروف في البلاد التي يكثر فيها مثل هذا، ويغمرهم بحيث إنه يرتفع جداً في البلد، وإن لم يغرق كل الناس، لكن معاناة الناس بعده أكثر مما يعانون أثناء الطوفان، -والله المستعان-، وما عادت هذه الأمور تؤثر اليوم في الناس من جهة وقعها والنظر في أسبابها وما ينبغي أن يكون التصرف إزاءها، وصارت تفسر بتفسيرات كتغيرات مناخية ونحو هذا من الأمور، ويُغفل مع ذلك السبب الحقيقي وهو الذنوب والمعاصي، والله المستعان.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا}، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: أي وجعلنا تلك السفينة باقية، {وَجَعَلْنَاهَا}، الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، {أَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا} يعني جعلنا السفينة، وبعض أهل العلم قال: {وَجَعَلْنَاهَا} أي: الواقعة، والحادثة، جعلنا تلك الواقعة آية للعالمين، كيف فعل الله -عز وجل- بهؤلاء المكذبين!، وبعضهم يقول: {وَجَعَلْنَاهَا} يعني: التنجية، النجاة لنوح -صلى الله عليه وسلم- ومن معه من المؤمنين، وكانوا قلة، حتى قيل: إنه لم يؤمن به إلا بعض ولده وبعض أزواج بناته، قلة قليلة، والبقية كفروا بالله -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: {وَجَعَلْنَاهَا} أي: الغرق -هذه العقوبة-، وهذا قريب من قول من قال: أي تلك الواقعة، وهو أيضاً قريب من قول قال: النجاة، {جَعَلْنَاهَا} أي: النجاة؛ لأن بين ذلك ملازمة، فهذا الذي وقع من هذا الطوفان حصل فيه تنجية نوح -صلى الله عليه وسلم- وحصل فيه إغراق هؤلاء المكذبين، فكانت نجاة نوح -صلى الله عليه وسلم- آية دالة على صدقه، وغرق هؤلاء آية أيضاً تدل على صدق ما جاء به، وكذلك أيضاً تلك الحادثة والواقعة أو العقوبة كل ذلك آية، ولكن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن يحمل على السفينة، {وَجَعَلْنَاهَا}؛ لأن الضمير يعود على أقرب مذكور، ولكن هل يعني هذا تخطئة قول من قال: إن ذلك يعود إلى الواقعة أو الحادثة أو التنجية لنوح -صلى الله عليه وسلم؟ أو العقوبة التي وقعت لهم؟، -هكذا عبارات السلف -رضي الله تعالى عنهم-، أقول: ذلك ليس بلازم، يعني حينما يقال: الضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهو السفينة، فهذه السفينة هل هي مجرد سفينة، أم لها حال وملابسة خاصة؟ وذلك أن الله حمل عليها نوحاً -صلى الله عليه وسلم- وأنجاه من الغرق وأغرق هؤلاء، فكانت تجري بنوح -عليه الصلاة والسلام- ومن فيها في موج كالجبال، ولم يكن للناس عهد قبل ذلك

بالسفن، ويقال: إن جبريل -عليه الصلاة والسلام- هو الذي علم نوحاً -صلى الله عليه وسلم- ذلك، ولهذا يقول بعض أهل العلم: إن هذه الصنائع صنائع شريفة زاولها الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فنوح -صلى الله عليه وسلم- اشتغل بالنجارة، وعمل السفينة، وكان معلمه في ذلك جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وداود -صلى الله عليه وسلم- اشتغل بالحدادة فكان يصنع الدروع ويأكل من عمل يده، وبيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ذلك أفضل الكسب، فصار الناس أو صار بعضهم بعد ذلك مَن ينتسب إلى شيء من الشرف في نسبه أو نحو ذلك لربما يتنزهون عن هذه الصنائع، ويرون أنها من المدنسات، ولذلك ملابسات عندهم لا حاجة لذكرها الآن، ولكن ذلك في الواقع غير صحيح، بمعنى أن الناس كانوا يزاولون التجارة والزراعة وما أشبه ذلك، وكان الذين يرِدون عليهم، أو المماليك أو نحو ذلك هم الذين يقومون بهذه الصنائع والمهن دونهم فعُرفوا بها، فصار الناس بعد ذلك يتنزهون عنها، وهذه أعراف فاسدة لا قيمة لها، ويكفي أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- قاموا بذلك.

وحينما يقال: الضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهو السفينة فهذا مرجح لهذا الأصل وهذه القاعدة، وهذا هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، واختاره جماعة من المحققين، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، ولكن هذا لا ينفي ما ذُكر؛ لأن هذه السفينة كان لها ملابسة، فحينما يقال: الغرق والنجاة والواقعة والحادثة إلى آخره كل هذا مرتبط بهذه السفينة، لكن الذين قالوا: إنها الحادثة أو الواقعة كأن الذي حملهم على ذلك هو أن السفينة لا وجود لها، فكيف قال الله: إنه جعلها آية، جعل السفينة آية؟، أين هي؟ فقالوا: الواقعة، الحادثة، العقوبة، ولهذا الذين قالوا: إن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور افترقوا إلى فريقين، طائفة قالوا: هي السفينة بعينها، ولهذا ذكر هنا قول قتادة: إنها بقيت إلى أول الإسلام وإنها على جبل يقال له: الجودي، فهذا الكلام لا يعرف له أصل، أعني أنها بقيت إلى أول الإسلام، ولو أنها بقيت من تلك المدة من نوح -صلى الله عليه وسلم- إلى أول الإسلام فإنه يمكن أن تبقى إلى الآن؛ لأن المدة ما بيننا أو ما بين قتادة وأول الإسلام هي مدة يسيرة جداً، فكيف بقيت تلك المدة آية ثم بعد ذلك ذهبت بمدة يسيرة أقل من قرن من الزمان؟!، يعني انتهت في القرن الأول الهجري، كيف يكون هذا؟! فإذا كان المقصود السفينة بعينها، سفينة نوح -صلى الله عليه وسلم- وأنها هي المقصودة بالآية فمعنى ذلك أنها آية عبر الزمن، وأنها باقية على مدى القرون وإن تطاول العهد، فكيف يقال: بقيت إلى أول الإسلام؟، كيف يحال الناس إلى شيء كهذا؟، فهذا الكلام غير صحيح، أنها بقيت، أنتم تقرءون هنا وهناك وتسمعون عن بعثات يذهبون ويبحثون في جبل يقولون ويزعمون في تركيا وأنهم يبحثون عن آثار هذه السفينة، وهذه السفينة لا أثر لها، وكل ما يذكر حول هذا فهو غير صحيح، ولا حاجة لمثل ذلك، وكان الحري بهم أن يتعظوا بما وقع لقوم نوح -عليه الصلاة والسلام- وأن ينيبوا إلى الله -تبارك وتعالى-، وأن يعملوا بطاعته بدلاً من أن يبحثوا عن آثار لهذه السفينة، وهذا هو الذي جعل الفريق الآخر يقول: المقصود الجنس، ليست هي السفينة نفسها، وإنما السفن التي نشاهدها تذكرنا بتلك السفينة التي حصلت بها النجاة.

ولهذا الله -تبارك وتعالى- قال: **{وَجَعَلْنَاهَا آيَةً}**، وكما في الآية الأخرى **{وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}** [سورة يس:٤١]، المخاطب بهذا الذين عاصروا النبي -صلى الله عليه وسلم- **{وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا**

حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} [سورة يس:٤١-٤٢]، والذرية تطلق إطلاقين متقابلين، تطلق على الآباء وتطلق على الأبناء أو الأولاد، هذا أقرب جواب ذكر في هذا، العلماء ذكروا فيه أجوبة، لكن هذا أقرب الأجوبة -والله تعالى أعلم-، فقوله: {حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ} يعني: الأجداد، الآباء في زمن نوح -عليه الصلاة والسلام-؛ لأن نوحاً -صلى الله عليه وسلم- يقال له: آدم الثاني، آدم الصغير؛ لأن جميع الناس الذين جاءوا من بعده كانوا من ذريته، كما قال الله -عز وجل-: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ} [سورة الإسراء:٣]، فهو آدم الصغير كما يقول بعض أهل العلم، فهنا {وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} أي: حملنا الآباء، {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}، فهذه آية أيضاً، ولهذا قال الله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة البقرة:١٦٤]، فجعل ذلك من جملة الآية، {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} [سورة الشورى:٣٢]، كالجبال، لاحظْ: في ذلك الزمان، يعني ما حجم السفن؟، بينما السفن اليوم شيء هائل لا يقادر قدره، تعرفون السفن اليوم الضخمة تدخل فيها التريلات كأنها جراد، التريلة كأنها جرادة تدخل داخل السفينة وتُحمل وتصعد، وتحمل الناس وسيارات الناس، والبضائع وغير ذلك.

وهنا {وَجَعَلْنَاهَا آيَةً} يقال فيه ما سبق -والله تعالى أعلم-، ولهذا قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً}، **وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس**، فقوله: {فَأَنجَيْنَاهُ} أي: نوح -صلى الله عليه وسلم-، {وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ} التي كانت معه، {وَجَعَلْنَاهَا آيَةً}، لاحظ ابن كثير دقيق، {وَجَعَلْنَاهَا} أي: السفينة، طيب أين هي؟ ابن كثير يريد أن يقول: السفن هذه التي نراها تذكرنا بتلك السفينة، فهذا تدريج من النوع إلى الجنس، ما هو النوع؟ السفينة التي حُملوا عليها {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ} التي عملها نوح -صلى الله عليه وسلم-، {وَجَعَلْنَاهَا}، ابن كثير يقول: ليست تلك السفينة كما احتاج قتادة إلى أن يقول: كانت موجودة، إذا جعلناها فقط إلى أول الإسلام، يعني كأن قتادة يريد أن يقول -رحمه الله- وهذا توجيه للأقوال-: إنه لما بقيت إلى أول الإسلام بلغت آخر الأمم، فإذا شاهدها بعض الأمة تكون قد بقيت حتى وقف عليها أول هذه الأمة التي هي آخر الأمم وبعدها تقوم الساعة، {وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ}، ولا يلزم من ذلك أن يشاهدها كل أحد في كل زمان حتى في القرون الماضية، إنما يشاهدها خاصةٌ مع انعدام تقريباً في وسائل الإعلام في الأزمنة الغابرة، كم عدد الذين يشاهدونها لو فرض أنها موجودة؟، مع أننا نقول: إن الضمير لا يرجع إلى تلك السفينة بعينها أي أنها يلزم أن تكون موجودة، وإنما قلنا: إنه يرجع إلى تلك السفينة بعينها {وَجَعَلْنَاهَا آيَةً} يعني ما وقع من التنجية فيها وغرق أولائك إلى آخره، وابن كثير يقول: **تدريج من الشخص** -سفينة نوح -عليه الصلاة والسلام- **إلى الجنس** وهو السفن عموماً، فهذه آية، كما جعل الله -عز وجل- النار هذه تذكرنا بنار الآخرة، وجعلها تذكرة.

وهنا قال: **هذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس كقوله تعالى**: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ} [سورة الملك:٥]، يقصد أن السماء زينت بمصابيح وليست هذه المصابيح هي التي

تنزل على الشياطين ولكن نوعها كما يقول ابن كثير -رحمه الله-، وهي التي تخرج شهب منها، قطع منها، والله تعالى أعلم.

يعني كأن ابن كثير يرى أن النجوم تسقط لكن ليست هي التي وضعت زينة؛ لأن تلك لذلك الغرض وهو الزينة، أي منها ما يكون زينة، ومنها ما يكون رجوماً للشياطين، ولكن الظاهر -والله أعلم- أن الذي يسقط هو أجزاء من هذه النجوم فجُعلت هذه النجوم لهذه الأغراض: زينة، ويهتدي بها الناس، يعرفون بها الجهات في أسفارهم ونحو ذلك، وجعلها رجوماً للشياطين فتخرج منها تلك الشهب ويُرجموا بها، لا أن المقصود -والله أعلم- أن النجم يسقط على الشيطان، النجم ضخم كبير، والله أعلم.

وظاهر كلام ابن جرير الذي ذكره اختياراً أنها السفينة، **{وَجَعَلْنَاهَا}** باعتبار أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، هذه الإضافة مفيدة، لكن قد يفهم منها أن هذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، ففرق بين أن يكون الشيء له وجه من النظر، وبين أن يكون اختاره، وابن جرير كثيراً ما يذكر هذا، يقول: لو قيل كذا فهذا وجه، فهذا حسن، هذا قريب، هذا احتمال وجيه، إلى آخره، لكن لا يعني أنه اختاره في قوله: **{فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ}**.

يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "ثم ذكر سبحانه ابتلاء نوح بقومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وابتلاء قومه بطاعته، فكذبوه، فابتلاهم بالغرق ثم بعده بالحرق"[٥].

إي يعني بالنار، يعني أن الله ابتلاهم بالغرق ثم بعد ذلك بالنار، **{أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا}** [سورة نوح:٢٥] الفاء للتعقيب المباشر، واستدل بها على عذاب القبر، البرزخ.

وقال -رحمه الله-: "ثم ذكر ابتلاء إبراهيم بقومه وما ردوا عليه، وابتلاهم بطاعته ومتابعته، ثم ذكر ابتلاء لوط بقومه وابتلاءهم به وما صار إليه أمره وأمرهم، ثم ذكر ابتلاء شعيب بقومه وابتلاءهم به وما انتهت إليه حالهم وحاله، ثم ذكر ما ابتلى به عاداً وثموداً وقارون وفرعون وهامان وجنودهم من الإيمان به وعبادته وحده ثم ما ابتلاهم به من أنواع العقوبات، ثم ذكر ابتلاء رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- بأنواع الكفار من المشركين وأهل الكتاب، وأمره أن يجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن، ثم أمر عباده المبتلين بأعدائه أن يهاجروا من أرضهم إلى أرضه الواسعة فيعبدونه فيها، ثم نبههم بالنقلة الكبرى من دار الدنيا إلى دار الآخرة على نقلتهم الصغرى من أرض إلى أرض وأخبرهم أن مرجعهم إليه فلا قرار لهم في هذه الدار دون لقائه، ثم بين لهم حال الصابرين على الابتلاء فيه بأنه يبوئهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، فسلاهم عن أرضهم ودارهم التي تركوها لأجله وكانت مَبَاء لهم بأن بوأهم داراً أحسن منها وأجمع لكل خير ولذة ونعيم مع خلود الأبد، وأن ذلك بصبرهم على الابتلاء وتوكلهم على ربهم، ثم أخبرهم بأنه ضامن لرزقهم في غير أرضهم كما كان يرزقهم في أرضهم، فلا يهتموا بحمل الرزق، فكم من دابة سافرت من مكان إلى مكان لا تحمل رزقها، ثم أخبرهم أن مدة الابتلاء والامتحان في هذه الدار قصيرة جدا بالنسبة إلى دار الحيوان

---

٥ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر، لابن القيم (٢٤٧).

والبقاء، ثم ذكر سبحانه عاقبة أهل الابتلاء ممن لم يؤمن به وأن مقامهم في هذه الدار تمتُّع وسوف يعلمون عند النقلة منها"[٦].

هذا جيد، هذا مفيد جداً فيما يتعلق بربط أجزاء السورة بأولها، يعني كأن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: هذه السورة هي سورة الابتلاء، الموضوع الرئيس فيها هو موضوع الابتلاء، {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}، ثم بعد ذلك ذكر نماذج لهذا الابتلاء مما وقع لنوح -صلى الله عليه وسلم- ومَن بعده من الأنبياء إلى نبينا -صلى الله عليه وسلم-، وما وقع لأولائك المكذبين وهكذا، بهذه الطريقة في الربط، فهذا له وجه جيد من النظر واضح ظاهر كما ترون في ربط أجزاء السورة بموضوع متحد، فهو حسن جيد ما لم يكن تكلفاً، وأحياناً يحصل تكلف في جمع أجزاء السورة ذات الموضوعات التي قد لا يكون هناك ترابط بينها إلا في موضوع كبير لا يخرج منه شيء في القرآن كأن تقول مثلاً: موضوع هذه السورة التقوى، كل موضوع سور القرآن التقوى، وإذا أعياك شيء قل التقوى، فالمأمورات والمنهيات كل ذلك داخل تحت التقوى، فمثل هذا فيه تكلف، ولا حاجة إليه، وموضوعات سور القرآن منها ما يرجع إلى موضوع واحد، ومنها ما يرجع إلى موضوعين، ومنها ما يرجع إلى ثلاثة، نزلت في أوقات مختلفة في قضايا متنوعة، فلا حاجة إلى التكلف، يعني الله -عز وجل- علمنا، علم نبيه -صلى الله عليه وسلم-، {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [سورة ص:٨٦]، التكلف في كل شيء غير جيد لا يصلح، لا في العلم، ولا في العمل، فإن كان الربط بهذه الطريقة فهذا مقبول، وإن كان على وجه من التكلف فهذا مذموم، ويُخشى أن يكون من القول على الله بلا علم؛ لأن ذلك داخل في جملة التفسير، والله تعالى أعلم.

{وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ} [سورة العنكبوت:١٦-١٨].

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء: أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم، لا مُسْدِ لها غيره، فقال لقومه: {اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ} أي: أخلصوا له العبادة والخوف، {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أي: إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة.

ثم أخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها والأوثان لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء، سميتموها آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلكم، هكذا روى العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والسدي.

وروى الوالبي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: وتصنعون إفكا أي: تنحتونها أصناما.

---

٦ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر، لابن القيم (٢٤٧).

يعني الآن في قوله: {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا} من أهل العلم من فرق بين الوثن، والصنم باعتبار المادة التي يصنع منها هذا وهذا، وبعضهم يقول: الصنم ما كان من المعادن من الذهب أو الفضة أو نحو ذلك، كالنحاس، والوثن ما كان من الآجر أو الخشب أو الطين والجص ونحو ذلك، هذا الوثن، وبعضهم يقول: إن الصنم ما كان على هيئة مصور بصورة إنسان أو صورة حيوان كأبي الهول ونحوه، والوثن ما كان من غيره كأن يكون شجرة العزى مثلاً، وقد يكون بيتاً يعبد ويطاف به كما يطاف بالكعبة، وقد يكون قبراً، وقد يكون خِرَقاً يتبرك الناس بها أو حجراً يتبركون به، أو نحو ذلك، فهذا الوثن، {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا}.

وروى الوالبي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: وتصنعون إفكا، أي: تنحتونها أصناماً وهي لا تملك لكم رزقاً.

يعني الآن {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا}، هنا قال: **وتصنعون إفكاً أي: تنحتونها أصناماً**، {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ}، الخلق هنا بمعنى التصوير والتشكيل، فهم الذين يعملونها بأيديهم فيجعلونها على صورة إنسان أو صورة طائر، أو صورة أسد أو نحو ذلك، {وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا}، فهذه التي ينحتونها ويجعلونها بهذه الصفة ويقولون: هذه آلهة، هم يخلقون إفكاً، يعني حينما يصورونها ويصنعونها ويدّعون لها هذه الدعوى، {وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا}، فهو يريد أن يقول: تنحتونها أصناماً، يعني تصنعون إفكاً، تنحتونها أصناماً، فهذه المصنوعات هي إفك، تصنعها أيديكم وتعبدونها من دون الله، فهذه إفك مصنوع تعملونه بأيديكم، أنتم تعبدون أصناماً، يقول لهم: وتخلقون إفكاً، تصنعونها بأيديكم، وهذه المصنوعات هي إفك حيث جُعل لها من الخصائص والأوصاف ما لا يصلح إلا لله -تبارك وتعالى-، يعني تعبدون أوثاناً وأنتم تصنعونها، وقريب من هذا قول من قال: إنكم تصنعونها وتعملونها للإفك، يعني: لهذه الدعوى الكبيرة العريضة أنها تقربكم إلى الله زلفى، أو أن لها تدبيراً وتأثيراً، ويتقربون إليها بألوان العبادات وهذا أمر في غاية العجب، ولكنها القلوب إذا زاغت عن الحق، والبصائر إذا عميت، والضلالة إذا حلت حصلت مثل هذه الأمور التي لا يكاد يصدقها الإنسان بعقله، وإذا سافرت إلى بلاد شاسعة واسعة رأيت العجب العجاب، وصارت هذه الآيات كأنها تنزل الآن، كيف وصلت العقول إلى هذا المستوى؟!، اذهب إلى بلاد الهند مثلاً، شيء هائل، أنواع المعبودات التي تعد بالملايين تعبد من دون الله -عز وجل-، وينحتونها، وتوجد أسواق ومحال وجهات مخصوصة، هذه لآلهة الفقراء تصنع من الخشب والأشياء الرخيصة من المعادن التي يقال لها: المعادن الخسيسة كالحديد ونحوه، وهناك آلهة تصنع للطبقة والفئة العليا للأغنياء والأثرياء والكبراء فهذه تصنع صناعة خاصة، وبمواصفات خاصة وبمعادن نفيسة وتباع بغالي الأثمان، ويأتون يشترون هذه الآلهة ويعبدونها، وإذا نظرت إلى تلك الآلهة تجد عجائب، هذا من خشب ومنحوت وبطريقة معينة وكأنه شايب، وهذا كأنه شاب، وهذا إله للتناسل، وهذا إله لكذا، وهذه كبار جداً، وهذه صغار، شيء صغير ينقله بالأسفار معه، يخف حمله...، وبيوت للفئران تبعد من دون الله -عز وجل-، ويوضع لها الحليب وكذا، ويأتي الناس ويعبدونها، وبيوت لكل ما هب ودب ودرج، كل ذلك يعبد من دون الله -تبارك وتعالى-، ويكفيك العرب كيف كانوا! الواحد يصنع صنماً من تمر أو لربما حلب الشاة على التراب وجعل منه صنماً ثم عبده حينما

ينزل في محل لا يجد فيه ما يعبده، -نسأل الله العافية-، فهذا كله واقع، فهذا إفك، -والله المستعان-، والدعاء لهذه الآلهة التي يصنعونها بأيديهم ثم يعبدونها، ولا عجب أن ترى هؤلاء في غاية الفقر ويأتي الواحد ببقرته التي لا يملك غيرها، وقد نذرها لهذا الحجر أو الصنم أو القبر الذي يعبد من دون الله -تبارك وتعالى- فهذا وثن، وأحياناً هذا القبر لا حقيقة له، أصلاً لا يوجد فيه ميت، وأحياناً يوجد فيه نصراني كما وُجد وعرف هذا كثيراً، ووجد في الجزائر، حُفرت بعض هذه القبور فوجدت فيها الصلبان، واكتُشف أنها قبور نصارى كان يدعى أنها قبور أولياء، وكم يدعى من قبور للحسين -عليه الصلاة والسلام- في القاهرة وبلاد الشام وغير ذلك، وقبور يقولون: إنها عبارة عن مقامات أو مشاهد للرؤيا، بمعنى أنه رأى واحد أنه يوضع هنا مشهد، فجاء وبنى مشهداً والمكان لا يوجد فيه قبر، وبعض هؤلاء كذاب دجال ادُّعيت له الولاية، كان قاطع طريق وسارقاً ثم تظاهر لما اكتُشف بشيء من الجنون، وقيد بالسلاسل، ثم بعد ذلك ادعيت له الولاية وظهرت يعني بعض الدعايات ونحو ذلك فصدق من صدق، وهكذا أيضاً هناك أحجار حتى إنه جاءهم بعض أهل العلم وجلسوا عندهم ما يقرب من أربعة أشهر، وبعض الذين جاءوا علماء وجلسوا عندهم، فكان الرد أن قالوا له: يا مطوع جلستم أو ما جلستم ما نحن بتاركين دينَنا، حجر يضعون عليه السمن والعسل ويذبحون عنده، حجر -صخرة- في بعض النواحي في البادية قبل سنين، وذهب لهم علماء معروفون لو سميت لكم أسماءهم الآن، جلسوا أربعة أشهر تقريباً يعلمونهم، في الأخير قالوا لهم هذا الرد: يا مطوع ما نحن بتاركي دينِنا، "روحوا وراكم" يعني اذهبوا انصرفوا وهذا هنا في جزيرة العرب، فإذا ابتعد الناس عن دين الله -عز وجل- وانكمشت الدعوة ظهر السحر وظهرت مثل هذه الضلالات وكثرت، وانظر في مصر وفي غيرها من البلاد، أمام الأزهر، فمشهد الحسين قدام الأزهر يعبد من دون الله -عز وجل-، مثل هذا كيف يقع؟! أنا ما رأيته لكن لا أتصور هذا، لا أتخيل المشهد، يعبد من دون الله كيف؟! ولا أتصور هؤلاء الذين يدخلون صباح مساء عبر القرون المتطاولة، أكثر من ألف سنة، علماء كل يوم يدخلون ويخرجون وهم يرونه أمامهم، فهو ما له هذه المدة لكن عبر القرون على الأقل، وانظروا إلى الضجة التي اليوم تُثار في تلك البلاد حول هذه الأوثان، وكلام ذلك المفتي البائس أن هذا من صحيح الإسلام، لاحظ تقديم كلمة صحيح على الإسلام، صحيح الإسلام، على سبيل المبالغة، أنه من صحيح الإسلام، الوثنية هذه من صحيح الإسلام، ويهدد ويتوعد الموحدين الذين يبينون للناس هذه الضلالات، -نسأل الله العافية-، الذي يقول هذا: المفتي.

{فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} وهذا أبلغ في الحصر، كقوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [سورة الفاتحة:٥]، {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ} [سورة التحريم:١١].

يعني ابتغوا، ما قال: ابتغوا الرزق عند الله، لو قال هذا يمكن أن يفهم ابتغوا الرزق عند الله وعند غيره، لكن {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} تقديم الجار والمجرور يفيد هذا الحصر، ابتغوا عنده لا عند غيره، وهؤلاء الذين يعبدون هذه الأوثان والأصنام يُضلَّلون، تضللهم الشياطين، ولهذا لما تقرءون في أخبار الأصنام عند العرب مثلاً في كتاب "أصنام" لابن الكلبي، وكذلك بعض الكتب مثل "تاريخ جزيرة العرب"، أو "الجزيرة العربية" لعلي جواد، وأمثال هذه الكتب تجدون أن بعض هذه الأصنام -بعض هذه المعبودات- كان ينطق فيها شيطان، يسمعون من يرد عليهم، ويكلمهم، فيُفتتون بسبب هذا، وتعرفون في قصة العزى لما أرسل لها النبي

-صلى الله عليه وسلم- خالد بن الوليد فقطع السَّمُرات ورجع للنبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره أنه ما فعل شيئاً، ثم رجع ثانية فوجد امرأة سوداء ناشرة شعرها تولول وتدعو بالويل فعلاها بالسيف، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تلك العزى))[٧]، يعني هذه شيطانة تضلل الناس، فيفتن الناس حينما يسمعون مثل هذا، والشياطين لا تفتأ بهذا التضليل، ولا تترك سبيلاً تضلل به الناس إلا فعلته.

ولهذا قال: {فَابْتَغُوا} أي: فاطلبوا {عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} أي: لا عند غيره، فإن غيره لا يملك شيئا، {وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ} أي: كلوا من رزقه واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم، {إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي: يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله.

وقوله تعالى: {وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ} أي: فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل، {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ} يعني: إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل مَنْ يشاء ويهدي مَنْ يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء.

وقال قتادة في قوله: {وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ} قال: يُعزي نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول، واعترض بهذا إلى قوله: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ}، وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضاً.

يعني بهذا الاعتبار {وَإِنْ تُكَذِّبُوا} أن هذا موجه لأمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، {وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ} فيكون هذا من الموصول لفظاً المفصول معنى، يعني الكلام السابق في الكلام على ما جرى من إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- مع قومه حينما قال لهم: {اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ}، {فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ} يعني: أن ذلك موجه لهذه الأمة، فصل الكلام عما قبله، ليس أنه من كلام إبراهيم، وإنما هو من كلام الله -عز وجل- يخاطب الناس بهذا، {اعْبُدُوا اللَّهَ}، {وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ} يعني عفواً: إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- قال لهم: اعبدوا الله واشكروه وابتغوا عنده الرزق، وقوله: {وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ} يحتمل أن يكون هذا من بقية كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، والسياق في ذكر إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- فيكون من جملة خطابه لهم، ويحتمل أن يكون هذا من كلام الله -عز وجل- وجّهه للمشركين، فهنا يقول: وقال قتادة: {وَإِنْ تُكَذِّبُوا} قال: يعزي نبيه -صلى الله عليه وسلم-، يعني أنه انقطع الكلام، قال: **وهكذا نص على ذلك ابن جرير -رحمه الله.**

والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل -عليه السلام- يحتج عليهم لإثبات المعاد لقوله بعد هذا كله: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ} إلى آخره، فهذا ظاهر السياق، أنه من بقية كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، والأصل في الكلام الاتصال أو الانفصال؟ الاتصال، ولا يوجد مانع يمنع من ذلك، وهذا له نظائر ذكرتها في مناسبات متعددة، مثل قول امرأة العزيز: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [سورة يوسف:٥٢] باعتبار أنه من كلامها، ويحتمل أنه من كلام يوسف -صلى الله عليه وسلم-، وفي ملكة اليمن بلقيس لما

---

٧ - رواه النسائي في السنن الكبرى، برقم (١١٥٤٧)، وأبو يعلى في مسنده، برقم (٩٠٢).

قالت: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً} [سورة النمل:٣٤] قال: {وكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}، يحتمل أنه من كلامها، أو أنه من كلام الله يصدق كلامها، إلى غير ذلك من الأمثلة، هذا الذي يقال له: الموصول لفظاً المفصول معنى، والأصل في الكلام الاتصال، أنه من كلام متكلم واحد، وهكذا في قوله تعالى لما ذكر المناظرة بين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وقومه، ماذا قال لهم؟ قال: {وكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ} [سورة الأنعام:٨١]، ثم قال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام:٨٢]، هل هذا من كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- من بقيته أو هو من كلام الله حكَمَ بين الطائفتين بين الفريقين؟ يحتمل، وقد يكون هذا في آية مستقلة، وقد يكون بجزء من آية كخاتمتها وقد يكون هذا بأكثر من ذلك، بمقطع أحياناً، ومضى الكلام على شيء من هذا في سورة البقرة، وما ذكره ابن جرير -رحمه الله- حيث يرى بأن ذلك موجه إلى بني إسرائيل، حتى قصة آدم مع إبليس وإخراجه من الجنة...إلخ، وقصة خلق آدم وما إلى ذلك، أن هذا كله خطاب لبني إسرائيل.

{أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة العنكبوت:١٩-٢٣].

يقول تعالى مخبرًا عن الخليل -عليه السلام- أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكوراً، ثم وُجدوا وصاروا أناسا سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته؛ فإنه سهل عليه يسير لديه.

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت، والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال وأودية وبِرارٍ وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن، فيكون؛ ولهذا قال: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم:٢٧].

ثم قال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ} أي: يوم القيامة، {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **يقول تعالى مخبراً عن الخليل -عليه السلام- أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد،** هذا بناءً على ما سبق، يعني الآية التي مضت في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}، يعني هل هذا من جملة كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أو هو من كلام الله -تبارك وتعالى- يُوجَّه إلى الذين خوطبوا بهذا القرآن؟، وإذا كان الأول يعني هذه الآية من جملة كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} أيضاً يحتمل أن يكون من كلام الله -عز وجل-، أو من جملة كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-،

فيكون الكلام لا زال متصلاً لإبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، فهنا من أهل العلم من يقول: هو من جملة كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وهذا يظهر جلياً على القراءة الأخرى المتواترة {أَوَلَمْ تَرَوْا} فيكون هذا واضحاً أنه من كلام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- مع أنه ليس بقاطع، يعني إذا قلنا: إن قوله مثلاً: {وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ} موجه لأمة محمد -صلى الله عليه وسلم- مثلاً، فكذلك يكون {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}، وإذا قلنا: الأصل في الكلام الاتصال وأنه من كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وأن خبره لم ينقضِ بعد؛ لأن الله قال بعد ذلك: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ} [سورة العنكبوت:٢٤]، يعني: بعدما قال لهم ووعظهم وذكّرهم وأمرهم ونهاهم، وذكر لهم دلائل التوحيد، {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا} كذا وكذا، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم- أنه من جملة كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا قال ابن كثير -رحمه الله-: يقول تعالى مخبراً عن الخليل -عليه السلام- أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم...إلى آخره، وعلى قراءة {أَوَلَمْ يَرَوْا} لا إشكال أن يكون من كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فيكون ذلك من قبيل الالتفات فهو تنويع في الخطاب، وهذا معروف وله نظائر، يعني يلتفت من المخاطب إلى الغائب، {الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [سورة الفاتحة:١-٥] فهنا التفت من الغائب إلى المخاطب، وكما في قوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم} [سورة يونس:٢٢] هذا التفات من المخاطب إلى الغائب، {وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ}.

ثم إن قوله هنا: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}، الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- أن المقصود بقوله: {يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ} أي: يبتدئ ذلك وينشئه أول مرة، ثم يعيده بعد ذلك بالبعث، فالنشأة الأولى دليل على البعث، وهذا يحتج الله -عز وجل- به في القرآن كثيراً على المشركين، وهو أحد دلائل البعث، الاحتجاج عليهم بالنشأة الأولى، وذلك أهون عليه أي: هيّن عليه، كما قال -تبارك وتعالى-، أو باعتبار المخاطبين: أن ما كان مبتدأً أصعب مما كان مُعاداً، فهنا يقول ابن كثير -رحمه الله-: أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، يعني الإيجاد، فهنا {يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} يوجده ثم الذي أوجد قادر على الإعادة، أوجدهم من العدم، فهذا النبات أرض قاحلة ما فيها شيء، يوجد فيها نبات أخضر من أين جاء؟ هذا الإنسان لم يكن موجوداً ثم ولد ووجد، وهو سميع بصير حي، ومن أهل العلم من يحمل هذا على معنى آخر، كابن جرير -رحمه الله- فهو يرى أن قوله: {يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} يعني: يستأنف الله خلق الأشياء، فيبدأ الإنسان طفلاً صغيراً، ثم بعد ذلك ينمو، ويشب، يصير غلاماً يافعاً ثم رجلاً مجتمعاً، ثم كهلاً، يُبدئ الله الخلق، يبدأ صغيراً حتى يكتمل، ثم يرجع ثم يعيده، {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} [سورة التين:٥] على بعض الوجوه في تفسيره، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} [سورة الحج:٥] يرد إلى أرذل العمر، يبدأ صغيراً حتى يكتمل ثم بعد ذلك يبدأ بالتلاشي والضعف حتى يصير إلى تلك الحال، إلى ضعف وشيبة، هكذا قال ابن جرير -رحمه الله-، يُبدئ الله الخلق ثم يعيده، والأقرب -والله تعالى أعلم- هو ما ذكره ابن كثير، أن المقصود الإيجاد فهو دليل وبرهان على البعث، والإعادة ثانية بعدما تفرقت أجزاؤهم في التراب واضمحلت، وهذا

كثير في القرآن، {فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا} [سورة الإسراء:٥١]، المقصود البعث والنشور، وتارة يحتج عليهم بخلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلقهم، {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ} [سورة الإسراء:٩٩]، فهذا كله من دلائل البعث، والله تعالى أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}، هذا أيضاً يؤكد المعنى السابق لمّا قال لهم: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}، قال: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ} بحيث ينظرون كيف بدأ الله الخلق، كيف أوجد الأشياء وخلقها ونحو ذلك، وهذا السير إنما هو لمن يحتاج إليه، هذا يحتج به بعض الناس على زيارة الآثار وأماكن المعذبين ونحو ذلك، والجواب: أن هذا إنما يُؤمر به في القرآن حيث ورد عند من يحتاج إلى ذلك، يعني عنده شك فيقال له: اذهب انظر إلى أماكن بقايا هؤلاء، يعني سِرْ في الأرض فترى خلق الله، ودلائل قدرته، ونحو ذلك، وإلا فما كان الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- يذهبون ويزورون هذه الأماكن، ويتعنّون لها، ما كانوا يفعلون هذا، ولا أرشدهم النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هذا، ولما ورد النبي -صلى الله عليه وسلم- على أرض المعذبين في الحِجر أسرع -صلى الله عليه وسلم-، ونهى عن دخولها -الدخول عليهم-، مع أنهم جاءوا من تبوك يعني ما قصدوهم، قال: ((إلا أن تكونوا باكين أو متباكين))[٨]، يعني: خشية أن يصيبكم ما أصابهم، لكن من يحتاج إلى ذلك يرى، وأما من وقع له ذلك عرضاً فإنه يرى من دلائل القدرة ما ينشّط بذلك مثل هذه المعاني في قلبه ويحييها من جديد؛ لأن الإلف يذهب معه الأثر، يعني الآن رؤية الشمس وهي تطلع كل صباح وتغيب، والليل حينما يغشى بظلامه، والنهار حينما تسطع أنواره كل هذا يذهب ويتلاشى أثره مع الإلف، ولهذا بعضهم يقول: لو أن أحداً منذ ولد وهو في قبو ما رأى السماء ولا الأرض ولا الشمس ولا القمر ولا النجوم ولا البحار ولا رأى شيئاً، ثم بعد ذلك بعدما صار يدرك ويميز ويعرف ويفهم -وصل إلى سن يربط فيها بين الأشياء- ويفقه ويعرف المعاني والحقائق أُخرِج ووضع، فبدأ في الصباح ورأى الشمس تبدأ تطلع فإنه يراقبها إلى أن تغيب، فإذا رأى الشفق لم ينقضِ عجبه فهاله ذلك المشهد وخاف، كأن ناراً مضطرمة تملأ الأفق، فإذا رأى النجوم تظهر في الليل فإن رأسه لا ينزل وهو يتأملها ويرقبها وينظر إليها فيتعجب من هذا المشهد في السماء، وهكذا حينما ينظر إلى الجبال، ينظر إلى البحر لا ينقضي عجبه منه، لكن الذي ألف هذه الأشياء لا يهتم، ولهذا حينما تسافر وتذهب إلى بعض الأماكن غير المألوفة بالنسبة إليك تشاهدها أول مرة وترى بعض الجبال في بعض المناطق بصور غريبة عجيبة، في طريقة قيامها وصخورها وتكورها في بعض المواضع واستطالتها في بعض المواضع بصور غير عادية، فحينما يشاهدها الإنسان ينبهر ويُحيي ذلك بقلبه من معاني القدرة ودلائلها الشيء الكثير، لكن الإلف هو الذي يُذهب هذا، فتجد من نشأ في تلك الناحية لا يحرك ذلك فيه ساكناً، ولهذا فإن الآيات المتلوة أيضاً قد يحصل ذلك معها أحياناً، فما يتدبر الإنسان ولا يقف عندها، فإذا وقعت الواقعة صارت هذه المعاني كأنما يسمعها أول مرة، ومصداق ذلك ما حصل لعمر -رضي الله عنه-

---

٨ - رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، برقم (٤٣٣)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، برقم (٢٩٨٠).

ولأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- لما توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقرأ أبو بكر عليهم قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} [سورة الزمر:٣٠]، {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [سورة آل عمران:١٤٤]، فعمر -رضي الله عنه- كأنها تنزل الآن، كأنه لم يقرأها من قبل، فالحاصل أن مثل هذا {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} هذا يحتمل أيضاً أنه من كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} ويحتمل أنه لهذه الأمة، أو أمرٌ للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أمر لأمته، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، وذلك بناءً على ما سبق من قوله: {وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ} فيكون الكلام الذي بعده موجهاً لهذه الأمة، وعلى طريقة ابن كثير التي مشى عليها أن هذا كله من كلام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام.

وقوله: {يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ} أي: هو الحاكم المتصرف، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر، مهما فعل فَعَدْلٌ؛ لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن: ((إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم))[٩]، ولهذا قال تعالى: {يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ} أي: ترجعون يوم القيامة.

وقوله تعالى: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ} أي: لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، وكل شيء خائف منه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه.

{وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ} أي: جحدوها وكفروا بالمعاد، {أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي} أي: لا نصيب لهم فيها، {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: موجع في الدنيا والآخرة.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ} ابن كثير -رحمه الله- قال: **أي لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه**، وهذا تفسير جيد، فالخطاب لمجموع الخلق، {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ}، لا يعجزه شيء -تبارك وتعالى- لا أهل السماوات ولا أهل الأرض، يعني: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} يعني: في الأرض، ولا أهل السماء بمعجزين فيها، كما يقول الفرَّاء.

وبعضهم يقول: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ} لو كنتم فيها، يعني أنتم لا تعجزون الله -تبارك وتعالى- في أي مكان كنتم، في الأرض أو في السماء -لو كنتم في السماء-، والأول هو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ}، ولا أهل السماء بمعجزين فيها، وهذا مثل كلام ابن كثير -رحمه الله-: لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، إلا أن عبارة ابن كثير أبسط وأقصر.

---

٩ - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، برقم (٤٦٩٩)، وابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب في القدر، برقم (٧٧)، وأحمد في المسند، برقم (٢١٥٨٩)، وقال محققوه: "إسناده قوي، سعيد بن سنان صدوق لا بأس به، وباقي رجاله ثقات، وهو موقوف من حديث أُبيّ بن كعب وابن مسعود وحذيفة بن اليمان، ومرفوع من حديث زيد بن ثابت، سفيان: هو الثوري، وابن الديلمي: هو عبد الله بن فيروز"، وصححه الألباني في تحقيق شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٥٠٩).

قال: {وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ}، الآيات هذه تحتمل أن تكون الآيات التنزيلية، وتحتمل أن تكون الآيات التكوينية، يعني الآيات التنزيلية هذا القرآن، {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ}، كفروا بهذا القرآن، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ} [سورة فصلت:٤١]، ويحتمل أن تكون هذه الآيات التكوينية -الآيات الكونية-، مثل كفرهم بآيات الله التي تأتي على يد الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مثل ناقة صالح -صلى الله عليه وسلم-، والآيات التي جاء بها موسى -عليه الصلاة والسلام-، إلى غير ذلك، وما يشاهد أيضاً من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وما أشبه ذلك، فهذا كله داخل فيه {كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ}، ويحتمل أن يكون المقصود مجموع الأمرين، يكون مجموع الأمرين، كفروا بهذا أو هذا فهم متوعَّدون، ووصفهم الله بما وصفهم به {أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي} أي: لا نصيب لهم فيها، تحتمل الرحمة هنا أن يراد بها الجنة، يعني أنهم يئسوا منها مثلاً في الدنيا، وتحتمل أنهم يئسوا منها في الآخرة لمّا عاينوا وشاهدوا وعرفوا مصيرهم، عاينوا العذاب، يئسوا منها في الآخرة كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، فالحاصل أن الرحمة يحتمل أن يكون المراد بها الجنة ((أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء))[١٠]، ويحتمل أن يكون المراد بها ما هو أعم من ذلك -والله المستعان-، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} [سورة الممتحنة:١٣]، {يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ} المعنى: يعني يئسوا إما من رحمة الله وثوابه في الآخرة لمّا عاينوا الحقائق كما يئس الكفار من رحمة الله، عفواً: يئسوا من الآخرة: من رحمة الله فيها، يعني هؤلاء اليهود {كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ}، يئس الكفار الموتى لما عاينوا الحقائق يئسوا من ثواب الله في الآخرة، يعني اليأس هنا متحد، هؤلاء اليهود يئسوا وهم أحياء من ثواب الله في الآخرة وجزائه الجنة كيأس الموتى من الكفار من ثواب الله في الآخرة لما عاينوا الحقائق، وإن كان هناك يحتمل معنى آخر أيضاً، {يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ} الأحياء من موتاهم أن يرجعوا إليهم، {كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} يئسوا من إخوانهم من موتاهم أن يرجعوا إليهم ثانية، قالوا: الذي يموت خلاص ما يرجع ولا يبعث، ولا تُجمع أجزاؤه وما تفرق منها في الأرض، -والله أعلم-.

---

١٠ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} [ق:٣٠]، برقم (٤٨٥٠)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٢٨٤٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة العنكبوت من الآية (٢٤) إلى الآية (٣٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم، أما بعد:

فقال المؤلف -رحمه الله تعالى-:

قال الله -سبحانه وتعالى-: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [سورة العنكبوت:٢٤-٢٥].

يقول تعالى مخبرا عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ودفعهم الحق بالباطل أنه ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان {إِلا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ}، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان، وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم، {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأسْفَلِينَ} [سورة الصافات:٩٧-٩٨]، وذلك أنهم حَشَدوا في جمعِ أحطابٍ عظيمة مدة طويلة، وحوّطوا حولها، ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب إلى عَنَان السماء، ولم توقد نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفَّة المنجنيق، ثم قذفوا به فيها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالما بعدما مكث فيها أياما، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً، فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، وسَخَا بولده للقربان، وجعل ماله للضيفان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان.

وقوله: {فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ} أي: سلَّمه الله منها، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} يقول لقومه مقرِّعاً لهم وموبخا على سوء صنيعهم في عبادتهم الأوثان: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا، صداقةً وألفةً منكم، بعضكم لبعض في الحياة الدنيا، {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} ينعكس هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بَغْضَة وشنآنا، فـ{يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ} أي: تتجاحدون ما كان بينكم، {وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} أي: يلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع، {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} [سورة الأعراف:٣٨]، وقال تعالى: {الأخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ} [سورة الزخرف:٦٧]، وقال هاهنا {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ} الآية، أي: ومصيركم ومرجعكم بعد عَرَصات القيامة إلى النار، وما لكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله، وهذا حال الكافرين، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، قوله: {مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ} فيه ثلاث قراءات متواترة، فقد قرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي {مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ}، وهذه القراءة ذكر بعضهم لها وجهين، يعني وجّهها بتوجيهين، التوجيه الأول: باعتبار أن "ما" موصولة، {إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ} "إنما" يعني: إن الذي {اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ}، فتكون مرفوعة باعتبار أنها خبر "إنّ"، أو يكون ذلك -أعني قراءة الرفع- باعتبار أنها خبر لمبتدأ مضمر، خبر لمبتدأ مقدر، والقراءة الثانية: {إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ}، فهذه قرأ بها أيضاً جماعة، فمن السبعة نافع، وبها قرأ أبو عمرو، وهي رواية أبي بكر {مَوَدَّةً}، وهذه باعتبار أنها مفعول لأجله، يعني اتخذتم من دون الله أوثاناً، ماذا يريدون بهذه الأوثان؟ لأجل المودة، {مَوَدَّةً}، أو باعتبار أنها مفعول لاتخذتم، {اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ}، والقراءة التي نقرأ بها قراءة حفص وحمزة {إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ}، فهذه ثلاث قراءات، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر هذه القراءة بما تقدم.

يقول: **إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا،** فيكون هذا معنى اتخاذ هذه المعبودات من دون الله -عز وجل- مودة، والمعاني والتوجيهات التي ذكرت في القراءات الثلاث كلها لا ينافي هذا المعنى، سواء قيل: اتخذوها مودة أو لأجل المودة، فهم يدورون حول هذا المعنى.

وقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: أي تتجاحدون ما كان بينكم، هذا التجاحد يحصل بين الأتباع والمتبوعين، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [سورة البقرة:١٦٦-١٦٧]، فهذا من التجاحد، وبعض أهل العلم يقول: هذا الكفر الذي ذكره الله هنا {يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ} يعني: أنه واقع بين المعبودات والعابدين، {مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} [سورة القصص:٦٣]؛ لأنه هنا ذكر أنهم اتخذوا هذه الأوثان معبودات من دون الله -عز وجل-، فيحصل هذا التجاحد، ومن نظر إلى أنهم فعلوا ذلك من أجل التوادّ فيما بينهم فسرها بما سبق من أن ذلك يتحول إلى عداوة يوم القيامة، فهم اجتمعوا على عبادتها في الدنيا ثم في الآخرة يكفر بعضهم ببعض، كل واحد -نسأل الله العافية- يتبرأ من الآخر إذا وقع في مغبّة عمله السيئ، وعند ذلك يريد الخلاص ويتبرأ من أولائك الذين دعوه أو شاركوه في عمله القبيح، والله -تبارك وتعالى- أخبرنا عما يحصل من كفر المعبودين بالعابدين، والعكس، وكذلك أيضاً كفر الأتباع بالمتبوعين، والعكس، فكل ذلك واقع، وقول من قال: إن ذلك يقع بينهم، يعني أنه ليس المراد المعبودات مع عابديها قد يؤيده ظاهر قوله -تبارك وتعالى- على سبيل الخطاب لهم؛ لأن هذا من قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، يقول لهم: {إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} يعني: يتبرأ بعضكم من بعض، مع أن ذلك لا يبعد معه ما ذكر من تبرؤ المعبودين من عابديهم، ولو قيل: إن ذلك جميعاً يدخل في الآية -لأن الله لم يحدد شيئاً من هذا وقد دل القرآن على ذلك جميعاً- لم يكن ذلك بعيداً، والله تعالى أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ}، وأيضاً مأوى الأوثان، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [سورة الأنبياء:٨٩]، وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [سورة التحريم:٦]، بعضهم قال: المراد بالحجارة هي المعبودات من دون الله -تبارك وتعالى.

{فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [سورة العنكبوت:٢٦-٢٧].

قال المؤلف -رحمه الله-: يقول تعالى مخبرًا عن إبراهيم أنه آمن له لوط، يقال: إنه ابن أخي إبراهيم، يقولون: هو لوط بن هاران بن آزر، يعني: ولم يؤمن به من قومه سواه، وسارة امرأة إبراهيم الخليل.

لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين الحديث الوارد في الصحيح: ((أن إبراهيم حين مَرّ على ذلك الجبار، فسأل إبراهيم عن سارة: ما هي منه؟ فقال: أختي، ثم جاء إليها فقال لها: إني قد قلت له: إنك أختي، فلا تكذبيني، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، فأنت أختي في الدين))[1]، وكأن المراد من هذا -والله أعلم- أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك، فإن لوطاً -عليه السلام- آمن به من قومه، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أُرسِل في حياة الخليل إلى أهل "سَدوم" وإقليمها، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي.

وقوله: {وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي} يحتمل عود الضمير في قوله: {وَقَالَ} على لوط، لأنه أقرب المذكورين، ويحتمل عوده إلى إبراهيم، قاله ابن عباس، والضحاك، وهو المُكنَّى عنه بقوله: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ} أي: من قومه.

وهذا الذي اختاره ابن جرير وبه قال قتادة وإبراهيم النخعي قبله، والضمير يرجع إلى أقرب مذكور، ولكن الحديث أصلاً عن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، فهو المخبر عنه، قال: {فَآمَنَ لَهُ} أي: لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وقال إبراهيم: {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ}، أي لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، {إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ} يعني: إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ}، إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، {وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ} أيضاً كذلك، وهكذا ما قبله أيضاً، {وَقَالَ} أي: إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، {إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا} إلى آخره، فهذا كله في إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، والقاعدة أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، فاجتمع عندنا هذا وهذا، يعني اجتمع عندنا قاعدة الضمير يرجع إلى أقرب مذكور فيكون المراد لوطاً -عليه الصلاة والسلام- لهذا الاعتبار، واجتمع أيضاً القاعدة الأخرى وهي أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، فيرجح باعتبار السياق، فالسياق كله في إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وبهذا الاعتبار يقال: إن ترجيح قاعدة توحيد مرجع الضمائر أولى من حمل المعنى على لوط -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور.

---

١ - رواه البخاري، كتاب البيوع، باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه، برقم (٢٢١٧).

قال -رحمه الله-: ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك؛ ولهذا قال: {إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ} أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين به، {الْحَكِيمُ} في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية.

وقال قتادة: هاجرا جميعا من "كوثى" وهي من سواد الكوفة إلى الشام.

وقوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ}، كقوله تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلا جَعَلْنَا نَبِيًّا} [سورة مريم:٤٩] أي: إنه لما فارق قومَه أقرّ الله عينه بوجود ولد صالحٍ نبيٍّ، ووُلد له ولدٌ صالح في حياة جده، وكذلك قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً} [سورة الأنبياء:٧٢] أي: زيادة، كما قال: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} أي: ويولَد لهذا الولد ولدٌ في حياتكما، تقر به أعينكما.

الله يقول: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} [سورة مريم:٤٩]، وهنا لما قال لهم: {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي}، ونابذهم وتركهم، ترك الأهل والوطن والعشيرة وهبه الله -تبارك وتعالى- من الولد ما تقر به عينه، وينسيه الأهل والوطن والعشيرة، ((إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ إِلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ))[٢]، وهذا المعنى أشار إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في مناسبات سابقة -مضى الكلام على هذا-، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- في كتابه "القواعد الحسان" عقد لها قاعدة أو عنواناً بما ذكرتُ أو قريباً منه "من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً" وذكر أمثله على ذلك من القرآن، والله المستعان.

وقوله: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}، هذه خِلْعَة سَنية عظيمة، مع اتخاذ الله إياه خليلا وجعله للناس إماما، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم -عليه السلام- إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سُلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في ملئهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي، خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العَرْباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم -عليهم السلام-، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه، -عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}، هذا كقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [سورة الحديد:٢٦]، وقد سبق الكلام على كون البشر جميعاً من ذرية نوح -عليه الصلاة والسلام-، ولذلك يقول عنه -صلى الله عليه وسلم- إنه آدم الصغير، فجعل الله ذريته هم الباقين، ذرية نوح -صلى الله عليه وسلم-، فكل من بقي بعد الطوفان ممن تناسل ووجد من البشر هو من ذرية نوح -عليه الصلاة والسلام-، وبعض أهل العلم يقول: إن الذين ركبوا معه في السفينة هذا النفر القليل هم أولاده وليس كل الأولاد، أحد هؤلاء الأولاد قص الله خبره وما حصل له من الغرق، قالوا: هم من آمن من أولاده، وأيضاً ركب معه أزواج بناته، فيكون الذين وجدوا بعد ذلك هم من نسل هؤلاء، وحتى لو ركب معه غيرهم أو وُجد من أهل الإيمان ممن لم يكونوا من نسله فإن نسله هو الذي بقي، فنوح -عليه

---

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٣٠٧٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح"، وقال الإمام الألباني -رحمه الله- في السلسلة الضعيفة في آخر تعليقه على الحديث رقم (٥): ".... نعم صح الحديث بدون قوله في آخره: "في دينه ودنياه"".

الصلاة والسلام- كلُّ نبي جاء بعده، بل كل بشر تناسل من بعده فهو من ذريته، فكل الأنبياء بعد نوح -صلى الله عليه وسلم- فهم من ذريته، وأما إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- فكل الأنبياء الذين جاءوا من بعده فهم من ذريته لا كل البشر.

قال -رحمه الله-: وقوله: {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [سورة العنكبوت:٢٧] أي: جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهنيء والمنزل الرَّحْب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، فكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [سورة النجم:٣٧]، أي: قام بجميع ما أمر به، وكمل طاعة ربه؛ ولهذا قال تعالى: {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}، كما قال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} إلى قوله: {وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [سورة النحل:١٢٠-١٢١].

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا} حيث ذكر الحافظ -رحمه الله- أن الله جمع له بين سعادة الدنيا ثم عدد صوراً لهذه السعادة من الرزق الواسع الهنيء والمنزل الرحب والمورد العذب والزوجة الحسناء الصالحة، والثناء الجميل والذكر الحسن، وكل أحد يحبه ويتولاه، كل هذه أقوال للسلف في تفسير قوله: {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا}، فتجدونها مفرقة في المروي عنهم، ولهذا كان من محاسن هذا التفسير أنه يجمع هذه الأقوال التي هي من قبيل اختلاف التنوع، فما ذكره كل واحد من هؤلاء يصلح أن يكون من قبيل التفسير بالمثال، {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا} ما المراد به؟، جعل له لسان صدق في العالمين، في الآخرين، آتاه زوجة ذات حسن، كل أحد يتولاه، كل هذه المعاني صحيحة، فهذا مما أعطيه في الدنيا وعُجل له، مع موفور الجزاء والثواب في الآخرة، واضح هذا؟، فإذا طالعت في كتب التفسير ونظرت في هذا الموضع عرفت قيمة هذا الكتاب، وهذا له نظائر كثيرة، قد أنبه على هذا في كثير من المواضع وقد لا أشير إليه ولكنه كثير، وهذه هي الطريقة الصحيحة في التفسير التي لا يحصل فيها تشتيت للقارئ، وإنما تجمع له الأقوال التي يمكن أن تجتمع في معنى الآية، والله أعلم.

قال سبحانه: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ} [سورة العنكبوت:٢٨-٣٠].

قال -رحمه الله-: يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط -عليه السلام- إنه أنكر على قومه سُوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذّبون رسوله ويخالفونه، ويقطعون السبيل أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئًا من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضا في الملأ، قاله مجاهد، ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون.

في قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ}، الواو يمكن أن تكون عاطفة على ما سبق، فأول الكلام: الله -تبارك وتعالى- يقول فيه: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} [سورة العنكبوت:١٤] ثم قال بعد ذلك: {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} [سورة العنكبوت:١٦] يعني: أرسلنا نوحاً وأرسلنا إبراهيم ثم قال: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ}، يعني: أرسلنا لوطاً، ويحتمل أن يكون المعنى واذكر لوطاً، وهذا الذي ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله-، واذكر لوطاً إذ قال لقومه، فيكون متعلقاً بفعل مقدر محذوف.

وأما قوله -تبارك وتعالى-: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ}، هنا قال: **ويقطعون السبيل أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم**، يعني فسره بقطع الطريق المعروف، يعني فعل المحاربين، فعل المحاربين الذين يقفون في سبل الناس ويأخذون المال ويقتلون، يعني قطاع طرق، هذا الذي فسره به ابن كثير -رحمه الله-، وهو المتبادر إذا قيل: قطع السبيل، السبيل هو الطريق، {وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ}، وبعض أهل العلم حمله على معنى آخر، وذلك أنه ربطه بفعلهم القبيح، وهؤلاء تفرقت أقوالهم، فمنهم من قال: إنهم بفعلهم القبيح تسببوا في قطع النسل، بمعنى أنهم يأتون هذه الفاحشة ومن ثَمّ فإنهم يستغنون بذلك عن النكاح، فيكون ذلك قطعاً للنسل، وهذا بعيد وإن قال به بعض أهل العلم، فإن ذلك لا يقال له قطع السبيل، وإن فسر قوله -تبارك تعالى-: {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} [سورة عبس:٢٠] باعتبار أن معنى السبيل هناك يسر له الخروج من بطن أمه، سبيل الخروج، لكن الأقرب هناك أيضاً أن يفسر بسبيل الخير والشر، {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ}، {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [سورة البلد:١٠]، طريق الخير وطريق الشر، ومن أهل العلم يعني من هؤلاء الذين ربطوه بهذه الفاحشة من قال: إن قطعهم السبيل أنهم كانوا يفجرون بمن يجتاز تلك الناحية، يقفون في طريق الناس وفي سبيلهم فمن مر بهم فجروا به، وبعض أهل العلم فسره بمثل هذا ولكنه قصد لازمه، قالوا: إنهم كانوا يقفون في طريق الناس ممن يمر بأرضهم ويفجرون بهم، فترك الناس المرور بها، فكان ذلك منهم قطعاً للسبيل، {وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ}، لكن لا يوجد ما يدل على هذا، أما تفسيره بقطع النسل فهذا بعيد، وأما كون هؤلاء أنهم يقطعون السبيل بفعل الفاحشة، قطاع طرق من أجل الفاحشة لا من أجل المال؛ لأن العادة أن قطع الطريق يكون من أجل المال ويحصل معه القتل من أجل المال، لا لأجل القتل وحده، وهذا الذي يذكرونه في قتل الغيلة، تعرفون أن كثيراً من الفقهاء مَن يفسره بهذا، الذي يقطع على الناس طريقهم فيقتلهم ليأخذ أموالهم، هذا الذي قال بعض أهل العلم: إنه لا تقبل فيه الدية إذا تنازل أولياء الدم، وليس المقصود هذا، والصحيح أن الدية تقبل، لكنه قد يقتل تعزيراً.

وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ} الأولى أن يفسر -والله أعلم- بما ذكره الحافظ ابن كثير أنهم يقطعون على الناس طريقهم، قطع الطريق معروف من أجل سلبهم، وهذا يدل على فسادهم المتناهي، فإن تلك الخصلة لا تكون إلا من أهل الإجرام، بلد ينتشر فيها الإجرام، لا يأمن فيها أحد، ويكفي أن لوطاً -صلى الله عليه وسلم- لما أتاه هؤلاء الضيِّفان جاء إليه هؤلاء يهرعون يريدون أن يفعلوا بهم الفاحشة، فمعنى ذلك أنهم كانوا يفعلون ذلك من غير مواربة بمن يعرفون ومن لا يعرفون، ومن يوافقهم ومن لا يوافقهم، فهذا لا يُعرف لأمة بهذا الوصف من الأمم إطلاقاً إلى يومنا هذا، أمة هكذا يستغني الرجال بهذا الشذوذ ويفعلونه

علانية مجاهرة من غير استتار ولا حياء مع من يوافقهم ومن لا يوافقهم، مع من يرِد ذلك البلد بنص القرآن، هذا لا يعرف في أمة من الأمم، فكانوا أول من اخترع هذه الفاحشة، وهم أيضاً أول من جسدها بهذه الصورة الشنيعة التي لا تعرف لغيرهم إلى يومنا هذا، على كثرة ما يوجد من الفساد والانحراف في بني البشر إلا أنه بهذه الصورة لا يُعرف لأحد على مستوى أمة يتحول إلى هذه الحال، يوجد مجموعات يوجد أفراد، لكن أمة بهذا الشكل تتحول كلها!، فهذا معنى قطع السبيل، والله تعالى أعلم.

فقطع السبيل بمعنى اعتراض الناس في الطرق بهذا الفعل القبيح هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، فصار قول ابن كثير أنه قطع الطريق المعروف، وأخذ المال، والقتل، وقول ابن جرير أنهم يقطعون الطريق بفعل الفاحشة.

{وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئًا من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضا في الملأ، قاله مجاهد، ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون، قالته عائشة -رضي الله عنها-، والقاسم، ومن قائل: كانوا يناطحون بين الكباش، ويناقرون بين الديوك، وكل ذلك كان يصدر عنهم، وكانوا شرًّا من ذلك.

هذا جمع جيد بين هذه الأقوال، {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} النادي والنَّدِيّ والمنتدى كل ذلك بمعنى المجلس، يعني أنهم يأتون في مجالسهم بالمنكر، والله لم يحدد شيئاً من ذلك، فهذه الأقوال التي ذكرها السلف -رضي الله تعالى عنهم- لا حاجة لترجيح واحد منها فيقال: هذا هو المراد، فليس عندنا على ذلك دليل، وإنما ذكر الله أنهم يأتون في مجالسهم –يفعلون- المنكر، فيدخل في ذلك فعل الفاحشة وغيره من المنكر والقبائح التي ما كانوا يستحون من فعلها، فهذه بعض الأمثلة التي ذكرت، وبعضهم يذكر غير هذا أيضاً كالتصفير والتصفيق ونحو ذلك من أفعال السفهاء، فكل هذه الأشياء المذكورة هي من أفعال السفهاء، والمنكر -كما هو معروف- هو ما خالف المعروف، فما أنكره الله -تبارك وتعالى- وأنكره أهل الإيمان، وأنكرته الفطر السليمة والعقول الصحيحة كل هذا يقال له: منكر، ولهذا يمكن أن يقال: إن المنكر هو ما أنكره الشرع، إذ الشرع ينتظم النقل والعقل الصحيح، فذلك منكر، والمعروف يقابله ويشمل ذلك محابّ الله -تبارك وتعالى-، ولهذا يقولون: ما استحسنه الشرع، فإذا قيل: ما استحسنه الشرع فهذا يدخل فيه ما يحسن في مجاري العقول الصحيحة؛ لأن الدليل العقلي والنظر العقلي الصحيح هو من جملة أدلة الشرع، ولهذا قيل لأعرابي: بمَ عرفت أنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ قال: ما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه، وما نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به.

وقوله: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [سورة العنكبوت:٢٩]، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم؛ ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: {رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ} [سورة العنكبوت:٣٠].

هنا الحافظ ابن كثير قبل ذلك قال: ومن قائل كانوا يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك، وهكذا بعضهم يقول: إنهم كانوا يحذفون بالحصباء يحذفون المارة، يعني يجلسون في مجالسهم فإذا مر بهم أحد حذفوه، من الاستخفاف بالناس، وبعضهم يقول: كانوا يستخفون بالغريب إذا جاء، يستهزئون به، وليس له

حرمة ولا حشمة، وبعضهم يقول: كانوا يلبسون المصبغات أو يصبغون أصابعهم بالحناء، وكل هذا مما يذكر، بعضهم يقول: يلعبون الشطرنج والنرد، فالمقصود أن هؤلاء في مجالسهم لا يتنزهون ولا يتورعون ولا يحتشمون، فيأتي منهم كل قبيح، {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ}، مجالسهم مجالس منكرات، شأن السفهاء وسخفاء العقول، بخلاف أهل الإيمان وأهل المروءة فإن مجالسهم تُحفظ من هذا كله.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، {ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ} هنا استعجلوا العذاب، في سورة النمل قالوا: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ} [سورة النمل:٥٦]، هذا جوابهم، {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ}، لاحظ، {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ}، وهناك {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ}، وهكذا في الأعراف {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ} [سورة الأعراف:٨٢]، ووجه الجمع بين هذا وهذا أن ذلك وقع منهم جميعاً، فكانت دعوته لهم -عليه الصلاة والسلام- مستمرة يدعوهم في كل مناسبة وفي كل حين، فقالوا له مستعجلين العذاب حينما خوفهم به: {ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ}، ثم بعد ذلك لما استثقلوا بقاءه بينهم قالوا: {أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ}، فوقع منهم الاستعجال، هات العذاب الذي تعدنا به، وقالوا أيضاً: {أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}، ويحتمل أن يكونوا بادروه بذلك {أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ} ثم لما خوفهم بالعذاب قالوا: {ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ}، المقصود أن هذا وقع منهم جميعاً، وهذا كما يروى عن عثمان -رضي الله تعالى عنه-: أن المرأة الزانية تحب أن النساء جميعاً يزنين، فأهل المنكر وأهل الباطل لا يحتملون وجود أهل الصلاح والفضل والطهر بينهم، وذلك أن وجود هؤلاء يوجه إليهم التهمة، ويجلي حالهم وما هم فيه من الفساد والظلمة، وبضدها تتميز الأشياء وتتبين، ولهذا فالمرأة المحجبة في بيئة متبرجة لا تطاق، والإنسان الذي يتنزه من شرب المسكر في بيئة يشربون المسكرات لا يطاق ويعير بهذا، والإنسان الذي يتنزه عن الفواحش في بيئة تفعل الفواحش أو مع صحبة يفعلون الفواحش ابتلي بهم في دراسة أو بعثة أو نحو ذلك فإنهم لا يحتملونه، وقد وُجد وحصل، وفي نهار رمضان يجتمعون عليه فيفتحون فمه ويصبون المسكر فيه، وحصل أيضاً أنهم يتفقون مع ملكة جمال الكلية، الكليات هناك يعمل لها مسابقات ملكات الجمال، يتفقون مع ملكة جمال الكلية ويقولون: عندنا حالة تحتاج إلى مساعدة إنسانية، عندنا زميل معقد، فنحتاج إلى مساعدة، ما هي المساعدة؟ أنها تحاول أن تغري هذا الشاب الذي يتنزه؛ لأنه معقد، يتنزه من الفواحش ولا يتعاطى شيئاً من ذلك، فيتفقون على أنها تأتي في وقت لا يكون أحد منهم فيه فتنفرد به، ثم بعد ذلك تتجرد من ملابسها أمامه وتغريه بالفاحشة، وحصل هذا، وفي بعض الحالات كان ذلك سبباً لإسلامها، تعجبت كيف الكل يتمناها، الشباب خلفها كيعاسيب النحل، كل واحد يطلب ودها، ويخطبه، وهذا يأبى وهي عنده وتعرض نفسها عليه، وتحاول به، ومع ذلك يعرض ويغض بصره ويأمرها بالخروج ويغضب، هذا غير طبيعي!، فتطلب منه شرح ذلك، ثم بعد ذلك بعدما تلبس يخبرها بأن دينه يمنعه من هذا، فيكون ذلك أول شيء يطرق سمعها عن العفاف، فيكون سبباً لإسلامها فيتزوجها هذا، هذا وُجد وحصل، حدثني بهذا بعض من كان آنذاك يدرس في بلاد الغرب، فمثل هذا لا يستغرب، أن أهل الباطل وأهل المنكر يكرهون ويستثقلون وجود أهل المعروف والصلاح بينهم، فإن ذلك يكون سبباً لضيق نفوسهم، وهو -كما مضى- إشارة إليهم بأصابع الاتهام، فهنا مباشرة قالوا:

{أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ}، {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ} والجريمة التي رموهم بها {إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}، الجريمة هي التطهر، هذه هي الجريمة التي فعلوها، -والله المستعان-، وتسمع اليوم في بعض البلاد بعض التهم الموجهة إلى بعض الناس أنهم رفعوا في الانتخابات الحل في الإسلام، أو الإسلام هو الحل، يسجنون بتهمة قلتَ هذا؟، قال: لا ما قلتُ هذا، رفعتَ هذا الشعار؟ ما رفعتُ هذا الشعار، هذا غير صحيح، هذه التهمة، الإسلام هو الحل، لكن إذا قال: الشيوعية هي الحل، أو قال: الديمقراطية هي الحل، أو نحوه، أو الحرية المطلقة هي الحل فهذه ليست جريمة، ولهذا لا يكاد يجرؤ أحد اليوم في ظل هذا السَّخب أن يقول: لا حكم إلا للشرع، والشرع هو المرجع وليس الشعب، والشرع هو مصدر السلطات وليس الشعب، من يجرؤ على هذا اليوم؟ أظنه سيضرب بالنعال -أعزكم الله- حتى يموت تعزيراً من تلك الجموع الغاضبة إلا من رحم الله -تبارك وتعالى-، والله المستعان.

قال سبحانه: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة العنكبوت:٣١-٣٥].

قال المؤلف -رحمه الله-: لما استنصر لوط -عليه السلام- الله عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم -عليه السلام- في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى أنه لا همَّة لهم إلى الطعام نَكِرَهم، وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة -وكانت حاضرة- فتعجبت من ذلك، كما تقدم بيانه في سورة "هود" و"الحجر"، فلما جاءت إبراهيمَ بالبشرى، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع لعلهم يُنظَرون، لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا: {إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ}، {قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} أي: من الهالكين؛ لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودَبْرهم، ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان، فلما رآهم كذلك {سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا} أي: اهتمَّ بأمرهم، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة.

في قوله -تبارك وتعالى-: {إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} قال: أي من الهالكين؛ لأنها كانت تمالئهم، أي من الهالكين، كلمة الغابر تدل على معنيين متقابلين، {مِنَ الْغَابِرِينَ} يعني: من الذاهبين في الهلاك، وتدل على معنى آخر يقابل الذاهبين أي: إلا امرأته كانت من الباقين في الهلاك، ولكن المعنى في النهاية -في المآل- يرجع إلى شيء واحد وهو أنها بقيت في أرضهم فكان ذلك هلاكاً لها، فمن فسره بالذاهبين فهذا معنى صحيح، ومن قال: أي من الباقين في الهلاك فهذا معنى صحيح، وهذا مثال على حمل الآية على المعاني التي تحتملها وهي من قبيل المشترك الذي يحمل معاني متناقضة أو متضادة، فإن ذلك قد لا يجتمع كقوله -تبارك وتعالى-: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ} [سورة البقرة:٢٢٨]، وهنا لابد القروء الطهر أو الحيض، فلابد من تفسيره بواحد من هذين، ولا يمكن أن يجتمعا خلافاً لما قاله الشوكاني -رحمه الله-، وهذا

غريب جداً في غاية الغرابة أن ذلك مما يمكن أن يجتمع، هذا لا يمكن، لكن من الصور التي يمكن أن تجتمع: {مِنَ الْغَابِرِينَ} من الذاهبين أو من الباقين، فذهابها هلاكها، وبقاؤها أيضاً هلاك لها، بقيت مع من هلك، بقيت مع قومها فنزل بهم العذاب فكان ذلك ذهاباً لها، وابن جرير -رحمه الله- فسر ذلك أنها كانت من الغابرين أي ممن تطاولت عليهم الدهور، ولهذا وصفها الله -عز وجل- بأنها عجوز، {إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} [سورة الصافات:١٣٥]، تطاولت عليها الدهور، تقادم عليها الدهر، تقدمت بها السن، وذهبت مع من هلك، فابن جرير -رحمه الله- فسره بهذا وهذا، أنها هالكة من بين أهل لوط -عليه الصلاة والسلام- وكذلك أيضاً أنها من الغابرين يعني بلغت من الكبر عتياً، مضى عليها زمان طويل في هذه الحياة، وأن الله أهلكها.

قال: فلما رآهم كذلك: {سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا}، معنى ضاق بهم ذرعاً أي قلت حيلته بهم، هذا معنى ضاق ذرعاً بالشيء، من قلت حيلته بشيء فقد ضاق ذرعه به، ضاق صدره، فضيق الذراع والذرع يقال: لقلة الحيلة والعجز عن التدبير، ليس عنده مساحة يتصرف فيها، ليس عنده خيارات من أجل أن يتصرف، فهذا يكنى به عن هذا المعنى، كما يكنى عن الفقر بضيق ذات اليد، فهنا ضيق الذراع، ضاق بهم ذرعاً، لم يكن هناك مجال للتحرك لإنقاذهم وتخليصهم من هؤلاء المجرمين، والله تعالى أعلم.

{وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ}، الخوف معروف، يكون مما يتصل بأمر مستقبل، قلق يساوره في أمر المستقبل، والحزن الأصل أنه يقال في أمر مضى، وقد يقال في غيره، وأهل الجنة يقولون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [سورة فاطر:٣٤]، فإذا فسر الحزن الذي ذكروه في الجنة بمعنى الإشفاق من الآخرة، {قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ} [سورة الطور:٢٦] فيكون الحزن بهذا الاعتبار من أمر مستقبل، على هذا المعنى، على هذا التفسير، وهذا قليل، وإلا فالأصل أن يكون الحزن على أمر فائت، ولهذا يقال: إن الحزن لا يحمد إلا إذا كان ذلك مما يتصل بالآخرة إما ندماً على معصية مضت فذلك ركن التوبة، وإما من قبيل الإشفاق والخوف من الآخرة، الخوف من سوء الخاتمة وما شابه ذلك، فقد يقال لهذا بهذا الاعتبار عند بعض أهل العلم: حزن، لهذا فسر بعضهم بهذا المعنى الذي ذكرت قوله -تبارك وتعالى-: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}، وقد لا يفسر بهذا، فالدنيا دار الكبد والأكدار والحزن، وليس هذا محل الكلام في الآية، لكن على كل حال قالوا له: {لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ} ابن جرير -رحمه الله- حمله على الحزن من هذا الخبر بهلاكهم، لا تخف فلن يصلوا إليك، ولا تحزن مما بشرناك به أو أخبرناك عنه من هلاك هؤلاء المجرمين، ولهذا يأمر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم-: {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} [سورة النمل:٧٠]، فكان الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أكمل الناس شفقة على أقوامهم، فينهاه عن الحزن عليهم، لا تخف ولا تحزن على هؤلاء، ويمكن أن يكون ذلك بنفي الحزن عنه مطلقاً كما نفاه الله -عز وجل- عن أهل السعادة في الجنة عن أهل الإيمان، {لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة يونس:٦٢]، وقالوا له: لا تخف فلن يصل إليك مكروه من هؤلاء ولا من غيرهم حتى هذا العذاب الذي سينزل ستنجو منه، ولا تحزن على ما كان من أمر مضى من ممارسات هؤلاء المنحرفة، وغير ذلك مما يستوجب الحزن، فإن الإنسان إذا رأى مثل هذه الأشياء انقبض قلبه وضاق صدره، ومما يدخل في هذا -والله تعالى أعلم- أنه ضاق بهم ذرعاً، وقال كلامه المحزن {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [سورة هود:٨٠]، فهذا يدل على ما كان فيه من الحال والأسف على هؤلاء والخوف على ضيوفه، فقالوا

له: {لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ}، ومثل هذا يحتاج إليه الدعاة إلى الله -تبارك وتعالى-، نفي الخوف الذي يساور النفوس فيعرقل هؤلاء ويثبطهم عن دعوتهم وتبليغها للعالمين، الأوهام، والحزن كذلك أيضاً على ما يقع من الناس من انحرفات ونحو ذلك فيتآكل المصلح والداعية من داخله، فإذا كثر عليه الحزن وتتابع ضعفت قوى النفس وتلاشت، وكان ذلك سبباً لليأس إذا تعاظم، إذا تعاظم مثل هذا الأسف تظلم الدنيا في عين الإنسان ولا يرى فسحة الأمل، ومن ثم يصير هذا الإنسان في حال من اليأس من صلاح الناس، ويبقى في حال من الكآبة، وهذا غير صحيح، ولهذا تجد كثيراً في القرآن ينهى ربنا -تبارك وتعالى- نبيه -صلى الله عليه وسلم- عن مثل هذا، {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [سورة فاطر:٨]، {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [سورة الكهف:٦]، {وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} [سورة النحل:١٢٧]، إلى غير ذلك، فالإنسان يقدم ما يستطيع ويكِل الخلق إلى خالقهم، ويبقى متفائلاً مستبشراً، وأجره موفور عند الله -تبارك وتعالى-، ويتذكر أنه يأتي النبيُّ وليس معه أحد، ويأتي النبي ومعه الرجل والرجلان، فكل ذلك مع اكتمال ما يطلب في الداعي إلى الله -تبارك وتعالى- من أسباب القبول الموجود في الأنبياء، العلم بما يدعو إليه والحرص والجد والاجتهاد في تبليغه والنصح للمدعو ومحبة الخير له، هذه الثلاثة الأركان كلها موجودة في هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مع غاية البيان، فلا يحصل منهم أي تقصير،

فإذا فعل الإنسان ما ينبغي فعند ذلك تبقى النتائج إلى الله -تبارك وتعالى-، هذا الذي يقال فيه: النتائج إلى الله وليست إلينا، ولا يقال ذلك في التقصير أو في حال التقصير في النظر الشرعي، وفي مآلات الأمور التي قد تتحول إلى مفاسد، فهذا لا يجوز أن يقال فيه: نحن نعمل والنتائج على الله، يجب التحري وضبط التصرفات بالضوابط الشرعية، ومراعاة المآلات ثم بعد ذلك يقول الإنسان: النتائج على الله، {وَلَا تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [سورة الأنعام:١٠٨]

{قَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [سورة العنكبوت:٣٣-٣٤]، **وذلك أن جبريل -عليه السلام- اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عَنَان السماء، ثم قلبها عليهم، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد؛ ولهذا قال تعالى:** {وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً} [سورة العنكبوت:٣٥] **أي: واضحة،** {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، **كما قال تعالى:** {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ} [سورة الصافات:١٣٧-١٣٨].

كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بأن الله جعل مكانهم بحيرة منتنة يقصد بذلك البحر الميت، يعني مكان قرى قوم لوط -عليه الصلاة والسلام-، وسبق الكلام على هذا، وأن الكثيرين يذكرونه، وقد لا يوجد ما يُقطع معه بأن هذا المكان هو مكان قوم لوط، ولكن قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ} يدل على أنهم كانوا يعرفونهم، ولكن قد يقول قائل: إنهم يمرون عليهم ولا يعرفونهم، فالله يخبرهم أنهم يمرون عليه مصبحين وبالليل، يخبرهم عن أمر لم يتفطنوا له، لو قال قائل مثل هذا لم يكن ذلك بعيداً في المعنى، ولو قيل: إنهم كانوا يعرفون المكان، فإن كانوا يعرفونه فذلك مما يتناقله الناس جيلاً عن جيل،

فالمشهور أنها هي هذا البحر الذي يسمونه البحر الميت، وهكذا قال قبله بعض السلف مثل مجاهد، قال: وهذا البحر الأسود، ويقصد بالبحر الأسود البحر الميت، والله تعالى أعلم.

قال: {وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً}، هذه الآية البينة ابن كثير يقول: بحيرة -البحر الميت-، وهكذا قول مجاهد كما سبق: البحر الأسود، وبعضهم يقول: هذه الآية البينة هي أنه اندرست معالمهم واختفت آثارهم كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، بعدما كانت قرى عامرة، والقرية لا يفهم منها ما نطلقه على القرية اليوم أنها مجمع البنيان الصغير، وإنما القرية تطلق على البلد، فالعواصم يقال لها قرى، {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى} [سورة هود:١٠٠]، {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ} [سورة محمد:١٣]، فذلك يقال له: القرى، المدن الكبار والصغار، فقرى قوم لوط مجموعة من القرى، ولهذا قال ابن كثير -رحمه الله-: إنه بُعث إلى سدوم وإقليمها، إقليمها كان مجموعة من القرى، ولهذا قال الله: {وَالْمُؤْتَفِكَاتُ} [سورة الحاقة:٩] باعتبار المجموع، وقال: {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى} [سورة النجم:٥٣] باعتبار أنها ترجع إلى إقليم واحد، فهي مجموعة من النواحي أو مجموعة من القرى التابعة لإقليم واحد، -والله تعالى أعلم-، فهنا ما هذه الآية البينة؟، هل هي البحيرة -البحر الميت-؟، أو هذه الآية البينة هي أنه عفت آثارهم؟ {آيَةً بَيِّنَةً}، لكن إذا عفت آثارهم هل هذه تكون آية بينة مع قوله: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ}؟ [سورة الصافات:١٣٧]، فهذا الذي حدا بكثير من أهل العلم أن يقولوا: إن المقصود بهذا هو هذا البحر الميت، فإذا قيل ذلك في معناها هنا سيأتي السؤال وهو: هل يجوز الانتفاع بالمستخرجات من البحر الميت ومعلوم أن كثيراً من صناعات الأدوية ومواد التجميل، وأشياء كثيرة جداً اليوم تستخرج من البحر الميت، بل هكذا توجد "منتجات البحر الميت"، وتوجد فيما نسمع منتجعات وأنواع من العلاج هناك، فهل للإنسان إذا كان هذا مكاناً للمعذبين، هل للناس أن ينتفعوا بشيء من هذا؟ منتجات البحر الميت، ويضعون منتجعات ويسبحون فيها، إلى آخره، أو أن مثل هذه الأشياء يفعل معها كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما جاء على أرض الحِجر -أرض ثمود- فأسرع -عليه الصلاة والسلام- ونهاهم عن دخولها إلا أن يكونوا باكين، هذا حينما كان مجتازاً فكيف بقصدها والذهاب إليها للمتعة والسياحة، أو نحو ذلك؟، وهكذا فعل عليٌّ -رضي الله عنه- حينما مر على أرض الخسف من بابل، أسرع، وبعضهم يذكر أن وادي محسِّر الذي بين مزدلفة ومنى النبي -صلى الله عليه وسلم- أسرع فيه يقولون: لأنه المكان الذي أُهلك فيه الفيل، لكن هذا لا يثبت، والله أعلم.

قال سبحانه: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [سورة العنكبوت:٣٦-٣٧].

قال المؤلف -رحمه الله-: يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب -عليه السلام- أنه أنذر قومه أهل مَدين، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ}.

قال ابن جرير: قال بعضهم: معناه واخشوا اليوم الآخر، وهذا كقوله تعالى: {لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ} [سورة الممتحنة:٦].

وقوله: {وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذابَ يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم، وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف، وهود، والشعراء.

وقوله: {فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ}، قال قتادة: ميتين، وقال غيره: قد ألقي بعضهم على بعض.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ} يقول: قال ابن جرير: قال بعضهم: معناه واخشوا اليوم الآخر، يعني هنا فسر الرجاء بالخوف، ومن معانيه التي ذكرها بعض أهل اللغة: الخوف، وبذلك فسر بعضهم قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا} [سورة يونس:١٠٠] يعني: لا يخافون لقاءنا، {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ} [سورة الكهف:١١٠] بعضهم يقول: يعني يخاف لقاء الله، وهذا معنى ذكره بعض أهل العلم من المفسرين وأهل اللغة، أن الرجاء يفسر بالخوف، بعضهم خصه بموضع في كتاب الله -تبارك وتعالى-، وبعضهم ذكر غير ذلك، وابن جرير -رحمه الله- نقل هذا القول، معناه واخشوا اليوم الآخر، لكنه فسره، فسر قوله: {وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ}، يعني وارجوا بعبادتكم إياي جزاء اليوم الآخر، يعني فسر الرجاء بالمعنى المتبادر المشهور، وهو ما يؤمله الإنسان من أمر يقرب حصولُه فيُرتجى، بخلاف الشيء البعيد فإنه يقال عنه: تمنٍّ، فالشيء الذي يبعد وقوعه أو يستحيل

ألا ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً ***

هذا يقال له: تمنٍّ، وأما الشيء القريب فإنه يقال له: ترجٍّ، ورجاء، فهنا {وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ} ارجوا بعبادتكم إياي جزاء اليوم الآخر، هذا الذي فسرها به ابن جرير -رحمه الله-، ونقل القولَ الذي ذكره ابنُ كثير، فيكون ابن جرير -رحمه الله- فسرها بالمعنى المشهور من الرجاء، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} هنا قال: هو السعي فيها والبغي على أهلها، السعي فيها بالفساد، وبعضهم يقول: إن العيث أشد الفساد، {وَلَا تَعْثَوْا}، تقول: عاث فساداً، يعني أكثر من الفساد والإفساد، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [سورة هود:٦٧]، قال قتادة: ميتين، هذا تفسير له بالمعنى، يعني: بمعنى أنهم فارقوا الحياة، لكن بأي صفة وأي صورة؟ هذا ليس بتفسير مطابق، فإن الجاثم ليس معناه الميت، لكن لما كانوا بصفة معينة موتى فسره بالمعنى فقال: ميتين، يقول: وقال غيره: قد ألقي بعضهم على بعض، هذا قاله ابن جرير -رحمه الله-، بمعني أكوام من الموتى -نسأل الله العافية- جاثمين، ترى أحياناً بعض الصور في كارثة تقع في زلزال أو في حرب مدمرة أو نحو ذلك تجد الناس أحياناً قد وقع بعضهم على بعض موتى، فابن جرير -رحمه الله- يفسر الجاثمين بمعني قد وقع بعضهم على بعض، وكثير من أهل العلم يفسرون ذلك بصفة معينة، فالجاثم هو الجاثي على الركب، يعني صفة الموت ليس مستلقياً أو على جنب أو نحو ذلك، وإنما على ركبه ووجهه إلى الأرض، وهذه الصفة قد تدل على حال عند الموت من حسرة أو محاولة أو طلب للمخرج والنجاة فسقط على وجهه، فهذه كانت صفتهم، {جَاثِمِينَ}، وكما ذكر الله -عز وجل- عن بعض من أهلكهم {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} [سورة الحاقة:٧] فهؤلاء عاد، {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}، أعجاز

النخل معروفة، فهم أجسامهم عظيمة جداً كأنها أعجاز نخل، وإذا رأيت النخيل قد تهاوت بعدما خوت، مَن قُدر له أن يرى هذا المشهد في أرض مشهورة فإنه يذكر هذا المعنى {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}، وقد رأينا في الطوفان الذي وقع قبل هذا الذي وقع في شرق آسيا في إندونيسيا تسونامي السابق رأينا الموتى وهم جثوم على وجوههم، الناس على الوجوه، يذكرك بقول الله -تبارك وتعالى-، وهم بين هذا الحصيد من بقايا البيوت والأثاث يطفو على الماء وهذه الجثث ساقطة على الوجوه جاثمة على الركب، يذكرك بقوله -تبارك وتعالى- : {فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}، هؤلاء حيث يعاجلهم الموت فلا يستطيعون التصرف ولا الخلاص، فيقع على وجهه، على ركبتيه، ينزل على الأرض ويتهاوى، يخر صريعاً، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة العنكبوت من الآية (٣٨) إلى الآية (٤٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصبحه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين والمستمعين.

قال المصنف -رحمنا الله تعالى وإياه- في تفسير قوله تعالى:

{وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [سورة العنكبوت:٣٨-٤٠].

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، فأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح وكانوا يسكنون الحجر قريبًا من وادي القرى، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيدا، وتمر عليها كثيرًا، وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة، وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله -صلى الله عليه وسلم.

{فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ} أي: كانت عقوبته بما يناسبه، {فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا}، وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: مَنْ أشدُّ منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب جداً، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عَنَان السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدناً بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر.

{وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ}، وهم ثمود، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة، مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحا ومَنْ آمن معه، وتوعَّدوهُم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات.

{وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ}، وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا، وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحًا، وفرح ومرح وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، {وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا}، وهم فرعون ووزيره هامان، وجنودهما عن آخرهم، أغرقوا في صبيحة واحدة، فلم ينج منهم مُخبَر، {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ} أي: فيما فعل بهم، {وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} أي: إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ} يحتمل أن يكون منصوباً بمقدر محذوف أي: واذكر عاداً، ومن أهل العلم من يقول: إنه عائد إلى أول السورة، كما سبق في الذي قبله؛ لأن الله -تبارك وتعالى- قال في أولها: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} [سورة العنكبوت:٣] أي: وفتنّا عاداً، كما سبق من كلام الحافظ ابن القيم -رحمه الله- من أنه ربط أجزاء هذه السورة بأولها، يعني كأنه يقول: إن هذه أمثلة ونماذج على ما ذكره الله -تبارك وتعالى- في أولها من فتْن الخلق وابتلائهم وامتحانهم، {فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} من هؤلاء؟ فذكر هؤلاء الأمم، قال: {وَعَادًا} أي: وفتنا عاداً، وبعضهم يقول: إنه عائد إلى ما قبله حيث ذكر الله -تبارك وتعالى- قوم شعيب، {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * وَعَادًا} أي: وأخذتْ عاداً الرجفةُ، وهذا قال به بعض الأئمة كالكسائي -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى مقدر وهو: وأهلكنا عاداً، {وَعَادًا وَثَمُودَ} يعني: وأهلكنا عاداً وثمود، هذا الذي اختاره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وهذه الأقوال محتملة، وقريبة، والله تعالى أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ}، بعض أهل العلم يقول: كانوا مستبصرين: أي أن الله -عز وجل- قد أعطاهم من العقول بحيث إنهم أصحاب بصائر يتمكنون معها من التمييز بين الحق والباطل ومعرفة حقيّة ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} ما كانوا يجهلون صدق الرسل -عليهم الصلاة والسلام- الذين أرسلوا إليهم، ولا صدق ما جاءوا به من الله -تبارك وتعالى-، فكانوا أصحاب بصائر، فعذبهم الله -عز وجل- وعاقبهم لمّا حصل منهم الكفر مع استبصارهم، وبعض أهل العلم يقول: كانوا عقلاء لهم بصائر فلم تنفعهم، يعني لم يربط هذا بمعرفتهم الحق، فرقٌ بين هذا والذي قبله، {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} أي: يعرفون حقيّة ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، كانوا يدركون ويعلمون أنهم جاءوا بالحق، وأن هذا ليس افتراء على الله ولا كذباً، والآخرون يقولون: {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} أي: كانوا أصحاب بصائر وعقول لكنها لم تغنِ عنهم ولم تنفعهم، وكما قال الله -تبارك وتعالى-: {لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا} [سورة الأعراف:١٧٩]، فكما لم تنفعهم أسماعهم ولا أبصارهم كذلك أيضاً لم تنفعهم عقولهم، فقد يكون الإنسان كثير العقل، حاد الذكاء ولكنه لا ينفعه ذلك عند الله -تبارك وتعالى-، ولا يقربه إليه، بل لا يزيده من الله إلا بعداً، فالعقل ليس كل شيء، وإنما الهداية من الله -جل جلاله- يوفق إليها من شاء من عباده، وبعضهم يقيد ذلك بكفرهم {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} في ضلالهم وكفرهم، يعني أنهم معجبون بذلك ويحسبون أنهم على هدى، وهذا القول -يعني أنهم على معرفة ودراية بما هم عليه ظناً منهم أنهم على هدى- هو الذي اختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، مع أنه لا يخلو من إشكال -والله تعالى أعلم-، الله -تبارك وتعالى- يذكر هؤلاء الأقوام والأمم أو يذكر قوم عاد، يقول: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} فهل معناه أنهم كانوا على معرفة بكفرهم لا على أنه كفر، وإنما كان لهم معرفة المعتقد المعجب بما هو عليه، هل هذا هو المراد؟ هل أراد الله -عز وجل- أن يبين هذا المعنى؟ هذا لا يخلو من إشكال، وأظنه -والله تعالى أعلم- أبعد من سابقيه، وأن الله -تبارك وتعالى- إنما

أراد أن يبين أن هؤلاء حينما وقعوا في الضلالة لم يكن ينقصهم العقل والبصر سواء قلنا: إنهم عرفوا حقية ما جاءت به الرسل، أو أن العقول لم تنفعهم، فإن ذلك مقارب؛ لأن هؤلاء إن كانوا يعرفون حقية ما جاءت به الرسل فهم في الواقع لم ينفعهم ذلك العقل، فلم يهتدوا بما جاءوا به، والله -تبارك وتعالى- أخبر عن الكافرين الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم كانوا يعرفون الحق، أخبر عن اليهود بأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، واليهود كانوا مستبصرين، كانوا يعرفون، لهم معرفة وعلم وعقل، ومع ذلك ما نفعهم هذا العلم والعقل، أو قلنا بإطلاق: إن هؤلاء كانوا مستبصرين، كانوا أصحاب بصائر وعقول فلم تنفعهم تلك العقول، فذلك غير منافٍ لما قبله، ومن أهل العلم من يقول: إن المراد بذلك كانوا مستبصرين أي أصحاب علوم ومعارف ويرجع ذلك إلى ما ذكره الله -تبارك وتعالى- من قوله: "فرحوا بما عندهم من العلم"، كان عندهم علوم، لكن هذه العلوم لم تزدهم من الله إلا بعداً، ما نفعتهم علومهم، فهذا الذي ذهب إليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وهذا أيضاً لا ينافي القول الأول والثاني، ولكن الإشكال فيما أظن -والله تعالى أعلم- فيما ذكره أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، فيمكن أن نؤلف من القول الأول والثاني والرابع معنى وهو: أن هؤلاء الذين كذبوا الرسل وأخذتهم هذه العقوبات لم يكن ينقصهم عقل ومعرفة وبصر ولكن ذلك العقل والمعرفة والبصر لم ينفعهم ولم يهتدوا به إلى الإيمان، فبقوا على كفرهم وعنادهم، هكذا يبدو المعنى، والله تعالى أعلم-.

ثم إن قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَارُونَ} كذلك أيضاً يحتمل أن يعود على ما قبله من قوله: {وَعَادًا} إذا قلنا: إن هنا يعني أهلكنا عاداً مثلاً، أو فتنا عاداً، يعني وقارون، ويمكن أن يكون عائداً إلى ما ذكر أيضاً من قوله -تبارك وتعالى-: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} وصد قارون، {فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ} يعني: وصد قارون وفرعون، ويحتمل أن يكون ذلك يتعلق بمقدر محذوف يعني: واذكر قارون وفرعون وهامان، وبعضهم يقول: إنه عائد إلى ما سبق من ذكر عقوبة قوم شعيب {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} يعني: وأخذت هؤلاء أيضاً، لكن هل هؤلاء أخذتهم الرجفة فعلاً؟ هذا غير صحيح، والله تعالى أعلم.

يقول: وقارون صاحب الأموال الجزيلة، وفرعون ملك مصر ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، قال الله -تبارك وتعالى-: {فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ}، أي: ما كانوا فائتين، يعني أنهم لا يفوتون، لا يسبقون، لا يحصل لهم نجاة وفوت من عذاب الله -تبارك وتعالى-، فإن الله قادر عليهم، ومجازيهم على كفرهم وضلالهم، وبعض أهل العلم يقول: إن قوله: {وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ} أي: وما كانوا سابقين في الكفر، فقد سُبقوا إلى ذلك، يعني ليسوا أول من كفر، والأول أرجح، وليس المراد -والله تعالى أعلم- أن الله يذكر أن هؤلاء ليسوا أول من كفر، {وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ} لما ذكر أخذه -تبارك وتعالى- لهؤلاء المكذبين واقتداره، قال: {وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ} أي: أنهم لا يفوتون الله -تبارك وتعالى-، فيتخلصون من العذاب.

قال: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ} قال: أي كانت عقوبته بما يناسبه، {فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا}، {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ}، لاحظ الآن أول من ذُكر عاد، {فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا} أو لوط، فابن كثير -رحمه الله-

يقول: وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}، فجاءتهم ريح صرصر باردة عاتية إلى آخر ما ذكر، وهؤلاء الذين أرسل الله عليهم حاصباً، هل هم فقط قوم عاد؟ قوم لوط ألم ينزل عليهم الله -تبارك وتعالى- حجارة من السماء؟ ولهذا ذكر بعض أهل العلم أن الذين أرادهم الله -تبارك وتعالى- بقوله: {فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا} قالوا: يعني قوم عاد وقوم لوط، فهنا ذكر الله -تبارك وتعالى- قوم لوط أولاً، وذكر بعده قوم عاد، وقوم عاد وقوم لوط يصدق عليهم أن الله أرسل عليهم حاصباً، والحاصب: هي الريح، يقال للريح التي تحمل الحصباء، تحمل الحجارة أو نحو ذلك، ومن رمي بالحجارة يقال أيضاً: إنه حصب، فقوم لوط لم يُرسَل عليهم ريح فيها حجارة ولكن نزلت عليهم حجارة من السماء، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: إن قوم لوط داخلون في هذه الآية، أن الله أرسل عليهم حاصباً، فيصدق على هؤلاء وهؤلاء، قال: {وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ} قال: وهم ثمود، وكذلك أيضاً أصحاب مدين قوم شعيب -عليه الصلاة والسلام-، ولهذا جمع بين هؤلاء بعض المحققين من المفسرين، قالوا: إن هذا يصدق على هؤلاء وهؤلاء، كابن جرير -رحمه الله-، وهنا قال: {وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ} قال: وهم ثمود قامت عليهم الحجة وظهر لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة، مثلما سألوا سواء بسواء، هو يريد أن يبين أن كل عقوبة كانت تتناسب مع القوم الذين نزلت بهم، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، والله -تبارك وتعالى- أيضاً قال: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ} [سورة هود:٦٧].

قال: {وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا} قال: هو فرعون ووزيره هامان، أغرقوا في اليم، وممن أغرق أيضاً من الأمم المكذبة من يصدق عليهم هذا قوم نوح -عليه السلام-، وعلى هذا الترتيب إذا صرفنا النظر عمن لم يذكر يكون في الآية لف ونشر مرتب، الله -تبارك وتعالى- ذكر هذه الأمم ثم ذكر هذه العقوبات مرتبة بحسب ما ذكر قبله، ذكرها بترتيب معين ثم بعد ذلك جاءت هذه العقوبات مرتبة حسب ما ذكر قبله، والله تعالى أعلم.

{مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ} [سورة العنكبوت:٤١-٤٣].

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمَنْ يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئا، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، لقوتها وثباتها.

قوله -تبارك وتعالى-: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا}، {كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ} بعض أهل العلم يقول: إن هذا المثل بمعنى مثل هؤلاء في اتخاذهم الآلهة كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ليكنّها، فهو تمثيل لحال هؤلاء الكفار، والله -تبارك وتعالى- يقول: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ}، مثل هؤلاء الكافرين في اللجأ إلى هذه الأوثان والمعبودات من دون الله، وعبادة هذه الأصنام كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ليكنّها من الحر والقر، وهو بتلك المثابة لا يكنّ من هذا ولا هذا، وبعض

أهل العلم يقول: إن المراد بذلك بيان ضعف هؤلاء، هم ضعفاء فأرادوا أن يستقووا وأن يلجئوا إلى ركن منيع، فكانوا بهذه المثابة اتخذوا أولياء أضعف منهم، كالعنكبوت اتخذت بيتاً بهذه الصفة من الوهن، فهؤلاء على ضعفهم اتخذوا معبودات أضعف منهم، أحجاراً وأشجاراً وقبوراً وما أشبه ذلك، فهذا تمثيل لحال العابدين والمعبودين، فهذا المعنى ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: أن ذلك في بيان ضعفهم وضعف معبوداتهم، وأنها أضعف منهم، والأول الذي ذكرت: أن هذا يمثل حالهم في اتخاذهم الآلهة فهم كالعنكبوت اتخذت بيتاً ليكنها لكنه بهذه المثابة كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، والمعنى يرجع إلى شيء واحد، وإن اختلفت عباراتهم فيه، فهو تمثيل لحال العابدين والمعبودين بالضعف والعجز واللجوء إلى ما لا غناء فيه ولا نفع، والعجيب أن بعض من يتكلمون في التفسير العلمي يهولون بيت العنكبوت ويتحدثون عن تلك الأسلاك التي يتكون منها هذا البيت كأنها قضبان من الفولاذ، ويذكرون أشياء لربما من يقرأ ما يكتبون يتوهم أن ما ذكروا له حقيقة وأن الله -تبارك وتعالى- قد ذكر ذلك لمعنى غير ما فهمه السلف -رضي الله تعالى عنهم-، الله -تبارك وتعالى- يقول: {وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ} ثم هؤلاء يذكرون أشياء عجيبة في هذا النسيج، وبعضهم يتكلم على هذا بطريقة أخرى أيضاً عجيبة وغريبة، يتكلم عن وهاء معنوي وليس بحسي، وهو يتكلم عما يجري داخل هذا البيت بيت العنكبوت، وكيف يحصل فيه من تنافر وفتك وأنه غير ملتئم، يعني أن الذكر من العنكبوت الأنثى على غير وئام، وأن الحياة تقوم بينهما على الفتك، وما أشبه ذلك، فيجعلون الوهاء وهاء معنويًّا، أنه بيت يتكون من هذا النوع من العلاقة المتنافرة، وهذا في غاية البعد، فالعرب الذين خوطبوا بالقرآن وذكر لهم هذا المثل والأمثال الحسية إنما تضرب ليقرب بها المعاني التي قد تغيب عن الأفهام، فيجعلونها بهذا المستوى والحال من الغموض والصعوبة التي قد لا يدركها إلا بعض المختصين في علم الحشرات، كيف العرب تفهم هذا المثل الذي ضرب مع أن العرب تفهم وتضرب المثل بهذا أن بيت العنكبوت هو أضعف البيوت من حيث البناء في مادته ووهائه وضعفه؟!، فكيف يذهب إلى هذه المعاني البعيدة التي هي خلاف مقصود الشارع تماماً؟!، ومثل هذا للأسف أيضاً تجده في كلام بعضهم على قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} [سورة البقرة:٢٦]، فإذا قرأت كلامهم على البعوضة يخيل إليك أنك تقرأ عن طائرة أباتشي مقاتلة ما هي بعوضة، يجعلون لهذه البعوضة من الخصائص والإمكانات، وكيف هذا الخرطوم، وكيف يدخل في جسم الإنسان دون أن يشعر، وكيف يمتص الدم، وكيف تتكون البعوضة، وكم لها من عين، والرؤية، والأشعة تحت الحمراء، وأشياء، أبداً طائرة أباتشي هذه، ما هي ببعوضة، حتى إنك يصيبك الخوف من البعوضة التي تملك هذه الخصائص والإمكانات الرهيبة، مع أن الله ذكر هذا على أن البعوضة ضعيفة صغيرة حقيرة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة))[1]، فالعرب تذكر البعوضة باعتبار أنها لا شيء، صغيرة ضعيفة في غاية

---

١ - رواه الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله -عز وجل-، برقم (٢٣٢٠)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، برقم (٤١١٠)، والحاكم في المستدرك، برقم (٧٨٤٧)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٢٩٢).

الضعف، فمن الخطأ قلب هذه المعاني والأمثال بعكس ما قصده الشارع تماماً، فهذا إفساد للمثل، وقلب للمعنى، والله تعالى أعلم.

وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، لو كانوا يعلمون ماذا؟ من أهل العلم من يقول: لو كانوا يعلمون أن اتخاذهم الأولياء من دونه كاتخاذ العنكبوت بيتاً، لو كانوا يعلمون هذه الحقيقة، ضعيف يلجأ إلى من هو أضعف منه، كالعنكبوت التي لجأت أو صنعت هذا البيت، فهو لا يغني عنها، أو لو كانوا يعلمون شيئاً من العلم يَعْلم بهذا، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، يمكن أن يكون لو كانوا يعلمون ما عبدوا هؤلاء من دون الله، أو لو كانوا يعلمون أن حالهم كحال هذه العنكبوت مع بيتها حينما عبدوا غيره -تبارك وتعالى-، عبدوا ما لا يضر ولا ينفع.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "فذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتاً وهو أوهن البيوت وأضعفها، وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حيث اتخذوا من دون الله أولياء فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفاً كما قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً} [سورة مريم:٨١-٨٢]، وقال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ * لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} [سورة يس:٧٤-٧٥] وقال بعد أن ذكر هلاك الأمم المشركين: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} [سورة هود:١٠١] فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليا يتعزز به ويتكثر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده، فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله: {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}؟.

فالجواب: أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزا وقوة فكان الأمر بخلاف ما ظنوا"[٢].

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}، "ما" هذه تحتمل أن تكون موصولة {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ} إن الله يعلم الذي يدعون من دونه من شيء، يعني أنه باطل، ويحتمل أن تكون استفهامية {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}، ويحتمل أن تكون مصدرية، ويحتمل أن تكون نافية {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ} يعني: أن ما دونه لا حقيقة له، وليس بإله كما يزعمون، وقوله: {مَا يَدْعُونَ} يدعون هذه قرأها الجمهور "تدعون"، {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ}، فيكون الخطاب موجهاً لمن كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- فمن بعدهم، وقراءتنا التي نقرأ بها

---

٢ - إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (١/١١٩-١٢٠).

قراءة عاصم، وكذا في قراءة أبي عمرو {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ}، هذه قراءة الجمهور "تدعون" لمن خوطبوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- فمن بعده، وقراءتنا التي نقرأ بها: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ} بالياء فيمكن أن يكون هذا يرجع إلى من ذكر، فيشمل السابقين، الأمم السابقة، لكن الله -تبارك وتعالى- قبله قال: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا}، فهو كلام عن الكافرين عموماً، فعلى قراءة {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ} وجه الخطاب إليهم مباشرة، أي الذين كانوا في وقت نزول القرآن، {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ} يعني هؤلاء المشركين في أي وقت كانوا، فكان الكلام -سواء على الغيبة أو على الخطاب- متوجهاً للمشركين الذين وصف حالهم {كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا}، والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى متوعدا لِمَنْ عبد غيره وأشرك به: إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم.

ثم قال تعالى: {وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ} أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه.

وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني، لأني سمعت الله تعالى يقول: {وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ} بالتاء أو {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ} بالياء لو قيل: إنه متعلق بمن ذكر من الأمم السابقة التي أهلكها الله -عز وجل- لربطنا المعنى بما سبق، يعني أن الله يعلم ما يدعون يعني هؤلاء الأمم الذين أهلكوا، {يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ} هذا على الياء، لكن كما سبق أن هذا كلام يقرر الله -تبارك وتعالى- فيه حقيقة وهي أن هؤلاء ليسوا على شيء ممن وصفهم الله وضرب لهم المثل، لكن على طريقة ابن جرير -رحمه الله- في ربط أجزاء الكلام ببعضه، وإلحاق الكلام بما يليه فإن ذلك أولى أن يربط، مثل هذا على هذه القراءة يربطه بمن ذكر من الأمم، فهو يرى أن الكلام لا زال مترابطاً، وأن الله عنى به أولائك الذين ذكر خبرهم ومآلهم وما صاروا إليه -ما نزل بهم من العقوبات-، على هذه القراءة.

وقوله: {وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ}، المثل إذا أردت أن تحقق معناه فإنه قد يكون في حال من الغموض بحيث قد يعسر على كثير من طلبة العلم أن يتوصلوا إلى معنى يصدق عليه ما ذكر في القرآن من المثل في جميع المواضع، ولذلك تجد عبارات العلماء -رحمهم الله- مختلفة اختلافاً كثيراً، وتجد أن ما يذكر مما يُظن أنه من أقرب هذه المعاني أنه تقريب المعقول بصورة المحسوس لتجليته للأذهان، هذا تصوير، وهذا الكلام مشهور، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا هو معنى المثل في القرآن، ولكن عند التأمل والتتبع للمواضع التي ذكر فيها المثل في القرآن تجد أن ذلك يصدق على بعضها، الأمثال التي يبين الله -عز وجل- فيها القضايا المعقولة بصورة محسوسة فقط، لكن المواضع الأخرى ما يصدق عليها هذا، وذكرت حينها أن أقرب ما يصدق على تفسير المثل -مع أنه غير متداول عند طلاب العلم- هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وهو أن ذلك يرجع إلى الشبه، أصل المعنى اللغوي يعني، فوسع معناه حيث أطلق في القرآن ليشمل كل ما يحصل به الاعتبار، فأدخل فيه قصص الأنبياء، قصص الأمم المكذبة، وغير

المكذبة، وكل ما قصه الله -عز وجل- في القرآن فهو داخل في الأمثال؛ لأن الله يذكر ذلك في بعض المواضع أن هذا من قبيل الأمثال، وأيضاً يقول: إن هؤلاء ذُكروا فإذا نُظر في حالهم -نظر الإنسان في حال هؤلاء- رجع إلى نفسه، فإن كانوا مكذبين قد نزلت بهم العقوبات فإنه يرجع إلى نفسه من أجل أن لا يعمل عملهم، يتعظ فلا يعمل ما عملوا، لا يقع فيما وقعوا فيه، فينزل به ما نزل بهم، فيقول: هذا على وجه الاشتباه، على وجه الشبه أو الارتباط فيرجع ذلك إلى أصل المعنى اللغوي وهو الشبه، فعند شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- الأمثال في القرآن تشمل القصص بجميع أنواعها، وهذا معنى واسع، وإذا أردت أن تجمع تطبيقات هذا في القرآن تحتاج إلى جمع القصص، بالإضافة إلى المعاني المعقولة التي تصور بصورة محسوسة، فهذا نوع من الأمثال، هذا بالإضافة إلى قضية أخرى العلماء متنازعون فيها كثيراً، من أهل اللغة وغيرهم، وهي أن المثل هل يأتي بمعنى الصفة أو لا؟، {مَّثَلُ الْجَنَّةِ} [سورة الرعد:٣٥]، فهل هذا يدخل في قضية الاعتبار، هل له تعلق بها أو أنه جاء هنا لمعنى آخر، وهو الصفة؟، وبعضهم ينكر هذا، مع إن إنكاره -والله أعلم- لا يخلو من تكلف، مع رجوعه إلى أصل المعنى الذي هو الشبه.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}، هذه الأمثال الآن هل المقصود بها ما ذكر من حال هؤلاء مع معبوداتهم أنهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً؟، أو أن ذلك يصدق أيضاً على ما قبله من ذكر خبر المكذبين من هؤلاء الأمم والأقوام، فكل ذلك من الأمثال، {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}، هل المقصود {وَمَا يَعْقِلُهَا} يعني ما يفهمها فقط؟ هل المراد الفهم؟ الفهم داخل فيه، ولكن الفهم وحده قد يتقاصر عن مرتبة العقل، عقل الشيء، فإن عقله يتضمن معنى زائداً وهو أنه يدرك مغزى المثل وما ضرب له، وموطن العبرة والعظة فيه، تقول: عقلت عنه، بهذا المعنى، فلان يعقل عن الله، فلان يعقل أو عقل ما أخبر الله عنه من حال المكذبين مثلاً أو نحو ذلك، ما هو مجرد فهم المعاني، أو هناك أمر وراء هذه المعاني، الذي يقولون أو يعبرون عنه اليوم بالقراءة لما بين السطور، يعني هذا المثل يرمي إلى ما وراء هذه الألفاظ، وهذه حقيقة التدبر؛ لأن ذلك يرجع إلى أدبار، دُبُر الشيء آخر الشيء، فماذا وراء هذه الألفاظ؟ ماذا وراء هذه الأمثال والقصص التي ذكرها الله -تبارك وتعالى-؟ أن يرجع الإنسان إلى نفسه وينظر في حاله، سواء فيما قصه الله -تبارك وتعالى- أو ما صوره في هذه الأمور المحسوسة، يعني الآن قد يقول الإنسان: إنه لا يعبد غير الله -تبارك وتعالى-، ولكن حينما يتعلق قلبه بمخلوق مع أنه يعبد الله -عز وجل- لكن قلبه يتعلق بمخلوق بحيث إنه لربما يتوهم أو تصير حاله حال من يظن أن النفع والضر بيد هذا المخلوق، وهو إن رضي عنه فهو في حال من الأمن وطيب العيش والسعادة، وأنه إن سخط عليه حرم وقطع وحيل بينه وبين رزق الله -تبارك وتعالى- وفضله، هكذا أحياناً يتصور الإنسان وهو يعبد الله -عز وجل-، لا يعبد إلهاً آخر، فالذي يعلق قلبه بالمخلوقين ويلجأ إليهم في طلب النفع والضر ويعلق قلبه بهم {كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ}، فهذا له تعلق بهذا المثل، فهذا لا يذهب الذهن فيه فقط إلى حال من يعبد الصنم مثلاً، فهذا من عقْل هذه الأمثال، يقرأ ما وراء السطور، يتوصل إلى المعاني التي لا يتوصل إليها كثير من الناس الذين يقرءون قراءة سطحية، يعقل الكلام ويدرك مراميه ومغزاه فينتفع به، {وَمَا يَعْقِلُهَا}، كثير من الناس قد يفهم المعنى، ولكنه لا يصل إلى تلك المراتب، والله تعالى أعلم.

{خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [سورة العنكبوت:٤٤-٤٥].

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه خلق السماوات والأرض بالحق، يعني: لا على وجه العبث واللعب، {لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى} [سورة طه:١٥]، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} [سورة النجم:٣١].

وقوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ} أي: لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية.

قوله -تبارك وتعالى-: {خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ}، قال: يعني لا على وجه العبث واللعب، خلقها بالحق يعني خلقاً متلبساً بالحق {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا} [سورة ص:٢٧].

ثم قال تعالى آمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس: {وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} يعني: أن الصلاة تشتمل على شيئين: على ترك الفواحش والمنكرات، أي: إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق؟ فقال: ((إنه سينهاه ما تقول))[٣].

وتشتمل الصلاة أيضا على ذكر الله تعالى، وهو المطلوب الأكبر؛ ولهذا قال تعالى: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} أي: أعظم من الأول، {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} أي: يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم.

وقال أبو العالية في قوله: {إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}، قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه.

وقال ابن عَوْن الأنصاري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر.

في هذا الموضوع شيئان: الأول: أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ما المراد به؟

والأمر الثاني: وهو قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}، أكبر من ماذا؟

أكبر مما ذكر قبله من الصلاة، أو أن ذلك بإطلاق، ذكر الله أكبر من كل شيء، فهنا ما يتصل بالصلاة الله -تبارك وتعالى- قال: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ}، {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ}، هذا أمر بقراءة القرآن، نحن مأمورون بهذا، قال: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}، كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ظاهر وهو في المعنى المشهور المتداول، أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر بمعنى أنها تحمل صاحبها على الامتثال ولزوم حدود الله -عز وجل- والخوف منه والحياء فيرعوي ويرتدع وينزجر عما لا يليق، أن الصلاة تحمله على مجانبة الفحشاء والمنكر، وهذا المعنى المشهور المتداول، وهو الذي قرره ابن

---

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (٩٧٧٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين"، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (١٢٣٧).

كثير -رحمه الله- هنا، وعليه يقال -وهو معنى صحيح-: إن الله -تبارك وتعالى- قال: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}، {وَأَقِمِ} أمر بالإقامة، وحيث ذكر الأمر بالصلاة فإن ذلك يأتي معبراً عنه بهذا {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ} ما يقول: أدوا الصلاة، وإنما يقول: {وَآتُواْ الزَّكَاةَ} [سورة البقرة:٤٣]، فالصلاة المطلوب فيها الإقامة لا مجرد الأداء، انتبهوا لهذا، وإقامة الصلاة يعني أن يأتي بها مستوفية لشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، فهذه الصلاة التي تأتي مشتملة على هذا تكون قد تحقق فيها هذا المعنى، الإقامة، وهو معنى متفاوت في حقيقته يزيد وينقص، والناس يتفاوتون فيه كثيراً، والشخص الواحد يحصل هذا التفاوت فيه من صلاة لأخرى، فهنا قال: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء} فـ"إنّ" هنا تدل على التعليل، وكما هو معروف أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فهنا عندنا الحكم: أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والوصف الإقامة، الحكم المعلق على وصف الإقامة يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فنقول: هذا الأثر للصلاة الذي هو الحكم يزيد، يعني كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر الناس يتفاوتون في هذا، يزيد بزيادة الوصف الذي علق عليه، فعلى قدر إقامتنا للصلاة على قدر ما يكون من الأثر لكونها تنهى عن الفحشاء والمنكر، هذا المعنى -والله تعالى أعلم-، فإذا فُهم هذا عرف الجواب عما يرد كثيراً من السؤال وهو لماذا نجد كثيراً من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر؟

السبب: أنهم أدوا هذه الصلاة وما أقاموها، أو أن إقامتهم لها كانت ضعيفة ومن ثَمّ ضعف الأثر، فهذا الإنسان الذي يأتي بالصلاة بهذه الطريقة لابد أن هذه الصلاة تؤثر فيه، في عمله وفي سلوكه وفي حاله مع الله -تبارك وتعالى-، وهذا لا يتأتى لمن يأتي دائماً والناس قد شرعوا في الصلاة أو بعد الإقامة، ويأتي مسرعاً مشوش الفكر والقلب ثم يدخل في الصلاة لا يدري ماذا قرأ الإمام، ولا يدري ما صلى!، ولربما كان الإمام سها أو نحو ذلك في ركعة أو زاد أو نقص وهو يمشي مع تكبيرات الإمام فإذا جلس في التشهد الأول وغير صوته بالتكبير عرف أنه التشهد، فإن كان الإمام لا يغير صوته قام إلى الثالثة مباشرة، أو ينظر إلى من بجانبه هل يقوم أو يجلس، ولهذا فإن بعضهم يقول: إنه إن كان مسبوقاً فإنه لا يدري كيف يصلي، لا يدري كم فاته ومتى يجلس، كم بقي عليه من صلاته، وبعض الناس يقول: إنه إذا جاء إلى المسجد ووجد الناس قد صلوا، أو يصلي السنة الراتبة فهو لا يعرف أنه في الركعة الثانية إلا أن عقاله قد سقط على الأرض، يعرف أنه حصل له سجود وركوع، فحينما يرى أن العقال على الأرض يعرف أن هذه هي الركعة الثانية، يقول: هذا فقط، لكن إذا كان يصلي صلاة رباعية فاتته مثلاً صلاة العشاء، فإن عقاله يكون من الركعة الأولى على الأرض، فبعد ذلك لا يعرف، يقول: أنا أصلي السنة الراتبة ما أخطئ فيها؛ لأني أرى هذه العلامة الفارقة بين الركعة الأولى والثانية، لكن إذا كانت ثلاث ركعات أو أربع فلا أعرف ما صليت، ويشتكي من هذا، هذا تاجر، رجل أعمال مشغول قلبه ومشتت بالتجارات، فهذه لا تعد إقامة، {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}، لكن ابن كثير -رحمه الله- هنا ذكر قولاً آخر وهو ما ذكره آخراً، **قال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر**، ومعنى هذا الكلام: هذا القول الآخر في معنى {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}، يقول:

وأنت تصلي فإن اشتغالك بهذه الصلاة إشغال لك عما هو منكر وباطل ومعصية لله -عز وجل-، يقول: هذا الوقت المستغرق فيها قد اشتغلت فيه بطاعة، وهذا الاشتغال بالطاعة صرفك في هذا الوقت نفسه عن المعصية، والفرق كبير بين القولين، يعني على هذا يكون الجواب عن الإشكال الذي يرد لماذا لا تنهى كثيراً من الناس صلاتُهم عن الفحشاء والمنكر، يقول لك: هي تنهاه أثناء الصلاة، انشغل بها عن المنكر والفحشاء، لكن إذا خرج ما عاد هو في صلاة، هذا معنى هذا القول، وهذا قال به أئمة كبار كما سترون، مع أن القول الذي قبله أولى -والله أعلم-، ويمكن الجمع بين القولين فيقال: إن الصلاة أثناء إقامتها والاشتغال لا شك أن الإنسان منشغل بها عما هو منكر وفحشاء في هذا الوقت، والنفس إن لم تُشغل بالطاعة شغلت صاحبها بالمعصية، وفي الوقت نفسه أيضاً فإن هذه الصلاة تؤثر بحيث إنها تجعل صاحبها مجانباً لمساخط الله -تبارك وتعالى- فيستحي منه، لكن كما قلت: يحتاج إلى أن يأتي بها على الوجه المطلوب، لو جرب الواحد منا مثلاً من اليوم أن يصلي صلاة أخرى بحيث إنه يحرص أن يكون عند الأذان في المسجد، وهو يقرأ القرآن ويذكر الله -عز وجل- فإذا أقيمت الصلاة يكون متهيئاً، لو استمر على هذا مدة ولهذا جاء في الحديث: ((من صلى لله أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كتبت له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق))[٤]، فهذا -والله -تبارك وتعالى- أعلم- لو أن الإنسان طبقه وجربه ومضى على هذا هذه المدة فإنه سيجد أن الصلاة لها معنى آخر، وأنه إن طال ذلك عليه فإن الصلاة ستتحول إلى قرة عين يجد فيها أنسه وراحته ولذته وانشراح الصدر، أما هذه الطريقة التي نحن عليها دائماً في صراع وتآكل ونأتي على الإقامة أو بعد الإقامة دائماً، بهذه الطريقة فهذه الصلاة تكون قليلة التأثير، لكن لو جربنا من اليوم أن نحرص إذا أذن المؤذن نكون في المسجد، ونستمر على هذا، نخرج قبل الأذان، ستجد أن الصلاة لها معنى آخر تماماً، وتتذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وجعلت قرة عيني في الصلاة))[٥]، لكن هذا يحتاج إلى شيء من الصبر والمكابدة، كما قال بعض السلف: كابدت الصلاة عشرين سنة، واستمتعت بها عشرين سنة.

قال ابن جرير -رحمه الله-: " اختلف أهل التأويل في معنى الصلاة التي ذُكرت في هذا الموضع، فقال بعضهم: عنى بها القرآن الذي يقرأ في موضع الصلاة، أو في الصلاة.

وقال آخرون: بل عنى بها الصلاة.

والصواب من القول في ذلك أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإن قال قائل: وكيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر إن لم يكن معنياً بها ما يتلى فيها؟ قيل: تنهى من كان فيها، فتحول بينه وبين إتيان الفواحش؛

---

٤ - رواه الترمذي، أبواب الصلاة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في فضل التكبيرة الأولى، برقم (٢٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٦٥٢)، وحسنه في صحيح الجامع برقم (٦٣٦٥).

٥ - رواه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، برقم (٣٩٣٩)، وأحمد في المسند برقم (١٢٢٩٣)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢٩١)، وفي صحيح الجامع برقم (٣١٢٤).

لأن شغله بها يقطعه عن الشغل بالمنكر، ولهذا قال ابن مسعود: من لم يُطع صلاته لم يزدد من الله إلا بعداً. وذلك أن طاعته لها إقامته إياها بحدودها، وفي طاعته لها مزدجر عن الفحشاء والمنكر"[٦].

وقال ابن القيم -رحمه الله-: "قول الله -تعالى ذكره-: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}، فقيل: المعنى أنكم في الصلاة تذكرون الله وهو من ذِكْره، ولذكره تعالى إياكم أكبر"[٧].

لا، هذا: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ}، لكن {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء} ما تكلم عليها؟

فبهذا تبين وجه المعنى الأول والمعنى الثاني وأنه يمكن أن نجمع بينهما، فالاشتغال بها اشتغال عن الفحشاء والمنكر وهي أيضاً تحمل صاحبها على الامتثال، وهل يخص هذا بالصلاة المكتوبة؟، قاله بعض أهل العلم، {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء}، ولكن هذا لا يختص بها، فالصلاة حينما يناجي العبد ربه ويقرأ كلامه فيها فإن ذلك يؤثر فيه هذا التأثير، ولا يقال: إن "ال" هذه عهدية، يعني الصلوات المكتوبة مثلاً، وإنما عموم الصلاة يحصل منها هذا الأثر، سواء قلنا: الاشتغال بها هو اشتغال عن الفحشاء والمنكر، فهذا ظاهر، أيّ صلاة يصليها نافلة أو فريضة، اشتغال بقيام الليل عن الاشتغال بالفحشاء والمنكر، ومن الفحشاء والمنكر هذه الأيام مطاولة الليل أوقات التنزل الإلهي على مواقع إباحية ونحو ذلك، وقد كثرت الشكوى من هذا، زوجات يشكين أزواجهن، وما إلى ذلك، إلى أن يصابح الإنسان الصبح، ولو أنه اشتغل بصلاة الليل لكان ذلك اشتغالاً عن الفحشاء والمنكر، ثم إن هذه الصلاة أيضاً تجعل هذا الإنسان يخاف ويستحي من الله -جل جلاله-، والفحشاء: يعني الذنب العظيم الشنيع الكبير، يقال له: فحشاء، وفاحشة، فكل ما فحش وعظم من الذنوب والجرائم فهو فحشاء، والمنكر خلاف المعروف، فكل معصية لله -تبارك وتعالى- فهي منكر، فيكون ذلك من قبيل عطف العام على الخاص؛ لأن المنكر يشمل المعاصي الصغار والكبار، والفحشاء تكون لما عظم، وتصدق في عرف الاستعمال غالباً على لون من المنكرات الكبار وهو ما يتصل بالزنا وما في معناه، الفحشاء، والفاحشة، فالصلاة تنهى عن هذا كله.

قال: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}، ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **أي أعظم من الأول**، فالأول الصلاة، يعني أنّ ذكر الله -تبارك وتعالى- أعظم في هذا الأثر، أبلغ من أثر الصلاة، الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وذكر الله أبلغ أثراً في ذلك، هذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله.

قال ابن جرير الطبري -رحمه الله-: "وقوله: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: ولذكر الله إياكم أفضل من ذكركم"[٨].

فالمعنى الأول: أن ذكر الله إياكم أبلغ من ذكركم له -سبحانه وتعالى-، ((من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه))[٩]، {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}، ذكره إياكم أكبر من ذكركم

---

٦ - جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر الطبري (٢٠/٤٠-٤٢)، منقول بتصرف.

٧ - الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن القيم (ص: ٧٤-٧٥).

٨ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٢٠/٤٢).

إياه، وعلى هذا المعنى ليس فيه نهي عن الفحشاء والمنكر، لكن المعنى الذي ذكره ابن كثير هو يرجع إلى ما سبق: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وذكر الله أبلغ في ذلك، في النهي عن الفحشاء والمنكر، المعنى الذي هنا: ذكر الله أكبر من ذكركم إياه.

وقال -رحمه الله-: "وقال آخرون: بل معنى ذلك ولذكركم الله أفضل من كل شيء"[١٠].

يعني هنا أكبر من كل شيء حمله على العموم والإطلاق بحيث لم يقيده بذكر العبد ربه، وإنما قال: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}، أكبر من كل شيء، فالاشتغال بهذا الذكر خير من الاشتغال بغيره، وهذا مقتضى حذف المتعلق؛ لأنه يفيد العموم النسبي، ما قال: أكبر من كذا، فيحمل على العموم، أكبر من كل شيء.

وقال ابن جرير -رحمه الله-: "وقال آخرون: هو محتمل للوجهين جميعاً، يعنون القول الأول الذي ذكرناه والثاني.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لذكر الله العبد في الصلاة أكبر من الصلاة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولَلصلاة التي أتيت أنت بها وذكرك الله فيها أكبر مما نهتك الصلاة عن الفحشاء والمنكر.

وأشبه هذه الأقوال بما دل عليه ظاهر التنزيل قول من قال: ولذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه"[١١].

هذا اختيار ابن جرير، أن ذكره إياكم أفضل من ذكركم إياه.

وقال ابن القيم -رحمه الله-: فقيل: المعنى أنكم في الصلاة تذكرون الله وهو من ذكره، ولذكره تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه، وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبي الدرداء وابن مسعود -رضي الله عنهم-، وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} قال: وهو قوله تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [سورة البقرة:١٥٢] فذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه.

وقال ابن زيد وقتادة: معناه: ولذكر الله أكبر من كل شيء، وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ قال: أمَا تقرأ القرآن {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} ويشهد لهذا حديث أبي الدرداء المتقدم ((ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق..))[١٢]، الحديث.

وقال شيخ الإسلام أبو العباس -قدس الله روحه-: الصحيح أن معنى الآية أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان وأحدهما أعظم من الآخر: فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولَمَا فيها من ذكر الله تعالى أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

---

٩ - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (٨٦٥٠)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وله إسنادان: أما الإسناد الأول فحسن، حماد بن سلمة سمع من عطاء بن السائب قبل الاختلاط في رأي بعض أهل العلم، وأما الإسناد الثاني -وهو حماد بن سلمة عن حميد وثابت وصالح- ففيه انقطاع، لأن الحسن -وهو البصري- لم يسمع من أبي هريرة".

١٠ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٤٤/٢٠).

١١ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٤٥/٢٠-٤٦)، بتصرف.

١٢ - رواه الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب منه، برقم (٣٣٧٧)، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (٢٢٦٩).

وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس أنه سئل: أي العمل أفضل؟ قال: ذكر الله أكبر.

وفي السنن عن عائشة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله تعالى))[١٣]"[١٤].

وقال -رحمه الله-: "فيها أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء، فهي أفضل الطاعات؛ لأن المقصود بالطاعات كلها إقامة ذكره، فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى أنكم إذا ذكرتموه ذكَرَكم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له، فعلى هذا المصدر مضاف إلى الفاعل، وعلى الأول مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر، بل إذا تم الذكر محق كل خطيئة ومعصية.

وهذا ما ذكره المفسرون، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: معنى الآية أن في الصلاة فائدتين عظيمتين:

أحدهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر.

والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له، ولَمَا تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر"[١٥].

مع أن هذه الأقوال لا يوجد منها قول بعيد، وإنما هي مقاربة -والله تعالى أعلم-، فإذا قيل: إن ذكر الله أكبر من كل شيء، فهذا مقتضى القاعدة، أن حذف المتعلق يحمل على أعم معانيه، وإذا قيل بما ذكره شيخ الإسلام أنها مشتملة على هذا وهذا فذكر الله فيها أكبر، وهذا قريب من قول من قال أيضاً: إن المقصود من العبادات هو ذكر الله -تبارك وتعالى-، فهو أكبر من كل شيء، وهكذا قول من قال: إن ذكره لكم أبلغ من ذكركم وأعظم من ذكركم إياه، لكن هذا كأنه يحتاج إلى تقدير، والأصل عدم التقدير.

هنا الشوكاني -رحمه الله- ذكر هذه الأقوال وغيرها يقول: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} أي: أكبر من كل شيء، أي أفضل من العبادات كلِّها بغير ذكر، ويقول: قال ابن عطية: وعندي أن المعنى {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} على الإطلاق -نفس كلام الشوكاني- أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل ما لم يكن منه في الصلاة، الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وذكر الله -عز وجل- أكبر من كل شيء، وله هذا الأثر في الصلاة وخارج الصلاة، قال: لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر لله مراقب له، وقيل: ذكر الله أكبر من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر مع المداومة عليه.

قال الفراء وابن قتيبة: المراد بالذكر في الآية التسبيح والتهليل، يقول: هو أكبر وأحرى بأن ينهى عن الفحشاء والمنكر، وقيل: المراد بالذكر هنا الصلاة، أي: ولَلصلاة أكبر من سائر الطاعات، وعبر هنا عنها بالذكر كما

---

١٣ - رواه أبو داود، كتاب المناسك، باب في الرمل، برقم (١٨٨٨)، وأحمد في المسند برقم (٢٤٣٥١)، وقال محققوه: "إسناده ضعيف، وقد روي مرفوعاً وموقوفاً، والصحيح وقفُه"، ورواه برقم (٢٤٤٦٨)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، وضعف إسناده الألباني في ضعيف أبي داود، برقم (٣٢٨).

١٤ - الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن القيم (ص: ٧٤-٧٥).

١٥ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم (٢/ ٣٩٨).

في قوله: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [سورة الجمعة:٩]، للدلالة على أن ما فيها من الذكر هو العمدة في تفضيلها على سائر الطاعات، يعني يقول هؤلاء: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ} يعني: في الصلاة، وقيل: المعنى ولذكر الله لكم في الثواب، ما هو ((من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي))[١٦]، لا بالثواب، والثناء عليكم منه أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلاتكم، قال: واختار هذا ابن جرير، مع أن ابن جرير عبارته كأنها فيها بعض المغايرة، فإنه لم يقيد ذلك بالثواب ((ذكرته في ملأ))، هل معناه ذكرته بالثواب؟! وذكر الحديث قال: ويؤيده حديث: ((من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي))، هل هذا بالثواب؟ ((ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)).

هذه الأقوال كما في قوله: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}، فهو أكبر من كل شيء، إذا قلنا بهذا فيكون أكبر من الصلاة وأكبر من ذكركم إياه، فإنه لا يوجد فيما نعلم دليل على تحديد واحد من هذه المعاني، والله -تبارك وتعالى- قد أطلق ذلك، {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} من ذكر العبد له، وهو أكبر من كل الأعمال التي يزاولها العباد، وهو أكبر وأعظم تأثيراً في النهي عن الفحشاء والمنكر، وهو أكبر في بلوغ العبد المراتب العالية ((سَبق المُفرِّدون))[١٧]، وفسره بالذاكرين الله كثيراً والذاكرات، فإذا حمل على هذا المعنى انتظم ما سبق، والله -تبارك وتعالى- قد أطلق ذلك، فلا يقيد بمعنى منها -والله أعلم- من غير دليل، أكبر من كل شيء، من ذكرنا له، من عبادتنا، وهذا أمر لا يخفى، وإذا نظرت في مثل كلام الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في الوابل الصيب مثلاً في فوائد الذكر ذكر له نحو مائة فائدة، فإذا نظرت في هذه الفوائد التي ذكرها للذكر تجد منها هذا الأثر، والإنسان الذي لا يزال لسانه رطباً من ذكر الله -تبارك وتعالى- يحصل له من الإخبات والانكسار والانقياد والدوام على الطاعة، وما يزجره عن المعصية، ومقارفة ما لا يليق شيء كثير، ولذلك تجد كثيراً ما يأتي حث الشارع على الذكر والأمر به مقيداً بالكثرة، بل لا يكاد يذكر إلا مع هذا القيد، {اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [سورة الأحزاب:٤١-٤٢]، {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} [سورة الأحزاب:٣٥]، {وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا} [سورة الشعراء:٢٢٧]، فإذا أكثر الإنسان من هذا الذكر بلسانه وقام ذلك بقلبه فكان قلبه ذاكراً مع ذكر اللسان فإنه يكون في حال من القرب وصلاح الظاهر والباطن وتحقيق العبودية، فإن ذكر الله يقربه ويقوده ويسوقه حتى يلزم الصراط المستقيم في أقواله وأفعاله، في أحواله كلها، هذا أمر مشاهد، وهو بالغ التأثير، ولا يخفى أن ذكر الله -تبارك وتعالى- حاصل في الصلاة كما إن ذكره -تبارك وتعالى- حاصل في قراءة كلامه، لكن لابد من مواطأة القلب مع هذا كله، فإذا حصلت هذه المواطأة بين القلب واللسان صار ذاكراً في الحال، صارت له حال الذاكرين، واستقام ظاهره وباطنه، ونسأل الله -عز وجل- أن يجعل ما نتعلمه قائداً لنا إلى العمل والامتثال، ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن من أفضل الدعاء هذا "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"، واقرءوا ما ذكر في هذا المعنى، فإذا أعين الإنسان على هذه الأمور الثلاثة حصل له خير الدنيا والآخرة، فيكثر الإنسان من هذا، والله أعلم.

---

١٦ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [آل عمران:٢٨]، برقم (٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، برقم (٢٦٧٥).

١٧ - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، برقم (٢٦٧٦).

{وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [سورة العنكبوت:٤٦].

المعنى: مَنْ أراد الاستبصار منهم في الدين فيجادَل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} الآية [سورة النحل:١٢٥]، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: {فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طه:٤٤]، ولهذا قال: {إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} أي: حادوا عن وجه الحق، وعَمُوا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم، قال الله -عز وجل-: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} إلى قوله: {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [سورة الحديد:٢٥].

قال جابر: أُمرْنَا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف.

وقوله: {وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ} يعني: إذا أَخبروا بما لا يُعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا نُقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا على تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيمانا مجملا معلقاً على شرط وهو أن يكون منزّلا لا مبدلاً ولا مؤولاً.

روى البخاري -رحمه الله- عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: {آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا} [سورة المائدة:٥٩]))[١٨]، وهذا الحديث تفرّد به البخاري.

وروى البخاري عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسوله -صلى الله عليه وسلم- أحدث تقرءونه محضا لم يُشَب، وقد حدّثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله، وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل إليكم.

وروى البخاري عن حُمَيد بن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة وذكرَ كعبَ الأحبار فقال: إنْ كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب.

قلت: معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد؛ لأنه يُحدث عن صحف هو يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة؛ لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة.

في المقصود بالكذب يقول: يقع منه الكذب لغةً، الكذب في اللغة يقال للخطأ، فمن لم يقع على الصواب يقال: كذَبَ، والكذب في إحدى إطلاقاته في لغة العرب يقال على الخطأ، فبعضهم يطلقه على كل تخالف بين الواقع والقول، فما خالف الواقع سواءً قصد به القائل ذلك أو لم يقصد فإنه يقال له: كذب، فمن أخطأ يقال: كَذَبَ،

---

١٨ - رواه البخاري في مواضع منها في كتاب تفسير القرآن، باب {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا} [البقرة:١٣٦]، برقم (٤٤٨٥).

ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((صدق الله)) في قصة العسل، لما قال رجل: إن أخي قد استطلق بطنه، يشكو، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اسقه عسلاً))، فقال: ما زاده إلا استطلاقاً، فقال: ((اسقه عسلاً))، إلى أن قال: ((صدق الله وكذب بطن أخيك))، فالكذب يقال للمخالفة التي تكون بين القول والواقع في لغة العرب، ولهذا إذا وجدت بعض الآثار عن الصحابة -رضي الله عنهم- يقول عن صحابي آخر: إنه كَذَبَ فيقصد به أخطأ، ويقال أيضاً -وهو المذموم- لما يحصل به التخالف بين ما في القلب وما في اللسان، وإن وافق الواقع، {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [سورة المنافقون:١]، مع أن هذا القول الذي قالوه هو موافق للواقع، النبي -صلى الله عليه وسلم- هو رسول الله، لكن لمّا خالف ما في نفوسهم كان كذباً، ولهذا فإن الإنسان إذا قصد الكذب فسُئل عن زيد فقال: إنه مسافر وهو يعتقد أنه موجود، فتبين أنه مسافر فعلاً فإنه يكون كاذباً، مع أنه وافق الواقع، فهذا هو الكذب الذي ذمه الشرع.

وقوله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} من السلف من قال: إنها منسوخة بآية السيف، والمقصود بآية السيف هي الآية الخامسة من سورة براءة {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [سورة التوبة:٥]، وقالوا: هذه الآية ناسخة لمائة وأربع وعشرين آية، فهذه الآية هكذا قيل فيها: إنها منسوخة بآية السيف، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} قالوا: ما في بالتي هي أحسن، كل شيء فيه إعراض وعفو وصفح وتسامح منسوخ بآية السيف، حتى قالوا: إن قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} [سورة التين:٨] قالوا: منسوخ بآية السيف، هو أحكم الحاكمين هذا لم ينسخ؛ لأن الأخبار لا يدخلها نسخ، لكن قالوا: إن ذلك قيل في المتاركة، دعهُم لله -عز وجل-، فقالوا: ما في بعد آية السيف ترك لهؤلاء وإنما أن يعمل السيف فيهم، فلا عفو ولا صفح ولا إغضاء ولا إعراض، كل الآيات التي فيها الإعراض، {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} [سورة السجدة:٣٠]، {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ} [سورة الزخرف:٨٩]، قالوا: لا سلام ولا مسامحة، كل هذا منسوخ، وهذا فيه نظر، والأقرب أن هذه الآيات لا يقال: إنها منسوخة بآية السيف بهذا الإطلاق، والتوسط في مثل هذه الأمور هو الصحيح -والله تعالى أعلم-، فهذه الآيات لم تنسخ، والأمة تمر بأحوال من القوة والضعف وما إلى ذلك، فهناك أحوال تُنزَّل عليها الآيات المكية من الصفح والإعراض والصبر والمداراة والدفع بالتي هي أحسن، وفي أوقات القوة والتمكن تُعمَل آية السيف لأعداء الله -عز وجل-، فهذا بالنسبة للقول: إنها منسوخة، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}، فأهل الكتاب: من أهل العلم من أطلق ذلك، وقال: أهل الكتاب يجادَلون بالتي هي أحسن {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} قال بعضهم: يعني كابر وعاند، فهذا ليس له إلا السيف، فكما في الآية السابقة من أن الله -تبارك وتعالى- قال: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ} [سورة الحديد:٢٥]، فذكر إنزال الكتاب الذي تحصل به الهداية، وذكر الأمر الآخر وهو إنزال الحديد {فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ}، فمن لم ينفع معه الكتاب فإن الكتائب والحديد هي التي قد تفل عناده وحربه لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-، قالوا: من لم يُجدِ معه الكتاب أجدى معه الحديد.

وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، {إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} بعضهم حمله على هذا الإطلاق، {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} من عاند بعد بيان الحق، وبعضهم يقول: من أساء الأدب في المناظرة والمجادلة، فيعامل بما يستحق، وبعضهم حمل ذلك على من أسلم من أهل الكتاب، قالوا: كل من بقي على كفره منهم فهو من هؤلاء الذين ظلموا، وقالوا: إن المراد بقوله: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ} كعبد الله بن سلام ومن آمن منهم، {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}، ومن عاند وكابر ولَجّ في الخصومة بعد بيان الحق له فهو من جملة الذين ظلموا، ففي البداية يجادَلون بالتي هي أحسن، المسلم منهم والكافر، ومن أسلم منهم لا يقال: إنه من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام -رضي الله عنه-، فالذي يظهر -والله أعلم- أن المراد أهل الكتاب بإطلاق، أنهم يجادلون بالتي هي أحسن؛ لأن عندهم من العلم والمعرفة، ونزلت عليهم الكتب، فإن مجادلتهم بالحسنى وذكر الحجج لهم أجدى في جذبهم وهدايتهم وإصلاح قلوبهم وكشف الشبهات العالقة في نفوسهم، وما وُضع الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه، وإذا كان هذا في أهل الكتاب في مجادلتهم فإن من نزل عليهم القرآن أولى بذلك حينما يجادلون فإنهم يجادلون بالتي هي أحسن، إلا من كان معانداً يقصد إبطال الحق، ونصر الباطل، وما أشبه ذلك، فإنه يعامل بما يستحق، أمّا أن تكون المجادلة بين الناس من طلبة العلم أو نحو ذلك بالتي هي أخشن دائماً فإن مثل هذا لا يليق بحال من الأحوال، ويكون ذلك سبباً لصد الناس عن الحق ونفرتهم منه، وهذا باب واسع يطول الكلام فيه أدى ببعضهم إلى ارتكاب أمور عظيمة جداً من تحريف القرآن خطًّا ليوافق ما قاله أولاً -نسأل الله العافية-، ولربما وصل ببعضهم الحال كما ذكر بعض أهل العلم إلى أن يقذف مناظره فيرميه بالزنا أو أنه ابن كذا لمّا يحتمي ويحتدّ، ولما كانت المجادلة فيها من حضور النفوس ما لا يخفى كان التلطفُ وجعْلُ هذه المناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن هو الطريق إلى تخفيف غلواء النفوس فيها، حتى إن بعضهم يقول: إن أصلها -هذه المجادلة- مأخوذ من الجَدَالة وهي الأرض الصلبة، ولهذا غالباً ما تذكر في القرآن في مقام الذم، غالباً، فلابد فيها من مراعاة ما ذكر، والله تعالى أعلم.

هنا في قوله: {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} الشوكاني يقول: بأن أفرطوا في المجادلة ولم يتأدبوا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم والتخشين في مجادلتهم، هكذا فسر الآية أكثر المفسرين، بأن المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وقيل: معنى الآية {وَلَا تُجَادِلُوا}، يقصد فسرها أكثر المفسرين بهذا: إن أساء وكابر ولَجّ في الخصومة، وقيل: معنى الآية لا تجادلوا من آمن بمحمد من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسائر من آمن منهم إلا بالتي هي أحسن، يعني بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أهل الكتاب، ويكون المراد بـــ {الَّذِينَ ظَلَمُوا} على هذا القول هم الباقين على كفرهم، وقيل: هذه الآية منسوخة بآيات القتال، وبذلك قال قتادة ومقاتل.

قال النحَّاس: من قال: هي منسوخة احتج بأن الآية مكية، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض ولا طلب جزية، ولا غير ذلك، قال سعيد بن جبير ومجاهد: إن المراد بالذين ظلموا منهم الذين نصبوا القتال للمسلمين فجدالهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، يعني من حاربوكم وقاتلوكم فهنا لا يقال: والله الحوار هو القوة الحقيقية، يقاتلون ويحتلون بلاد المسلمين ويأتي من يتفلسف ويقول: القوة الحقيقية في الحوار، أي حوار مع هؤلاء وهم بهذه المثابة؟ الجهاد هو حماية المشروع الإسلامي، هذا الجهاد صار حماية المشروع

الإسلامي، هذا الجهاد في سبيل الله، والقوة الحقيقية هي الحوار، يهدمون البلاد على أهلها ويقال: القوة الحقيقية الحوار!، والجهاد هو حماية المشروع الإسلامي، يستحي أن يقول: القتال في سبيل الله -عز وجل-، -نسأل الله العافية- نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر، **{رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ}** [سورة آل عمران:٨]، -نسأل الله العافية-، فتن يتقلب الناس ظهراً لبطن، ما تدري إلى أين يتجه، يريد أن يقود الناس بهذه الأطروحات وبهذه الضلالات والانحرافات، يريد أن يقودهم لماذا؟ الله يصلح الحال.

قال: لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة. ومع ذلك وقُربِ العهد وُضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة، لا يعلمها إلا الله ومن منحه الله علما بذلك، كلٌّ بحسبه، ولله الحمد والمنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة العنكبوت من الآية ٤٧ إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قال تبارك وتعالى: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} [سورة العنكبوت: (٤٧-٤٩)].

قال ابن جرير: يقول الله تعالى: كما أنزلنا الكتاب على مَن قبلك يا محمد من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب، وهذا الذي قاله حسن ومناسبته وارتباطه جيد.

كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يؤيد ما قاله ابن جرير، والمقصود أن قوله: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ} يعني: كما أنزلنا الكتاب على من قبلك، كذلك أنزلنا الكتاب، هذا كلام ابن جرير وابن كثير، أو: {أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ} مثل ذلك الإنزال البديع، وبهذا الاعتبار لا يكون ذلك مرتبطا بإنزال الكتب على من قبله، فالفرق بين المعنيين واضح، وابن كثير -رحمه الله- اختار الأول من أجل حسن المناسبة والارتباط؛ لأن الله -تبارك وتعالى- ذكر من خبر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- قبله، وإلحاق هذا بما مضى أولى، وهذه طريقة ابن جرير -رحمه الله- في التفسير اعتبارا بقاعدة أن إلحاق الكلام بما يليه أولى من قطعه عنه أو تفريقه، وكما سبق من أن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- ربط أجزاء هذه السورة في أولها، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [سورة العنكبوت: (٤٧)] أي: الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأشباههما {يُؤْمِنُونَ بِهِ} يعني: أن المقصود من هؤلاء هم من أسلم من أهل الكتاب ولابد؛ لأن الكافرين ليسوا كذلك فلا يؤمنون به، والمقصود بالإيمان الإيمان الصحيح الذي هو بمعنى الإقرار والإذعان والتصديق الانقيادي، أما مجرد التصديق فإنه كما قال الله -تبارك وتعالى- {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: (١٤٦)]، لكن ذلك لا ينفعهم، فهذا توجيه بهذا الاعتبار؛ ومن أهل العلم كابن جرير من يحمل ذلك على من قبله من بني إسرائيل {فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} وأن قوله: {وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ} يعني: من كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- ممن آمن به منهم كعبد الله بن سلام، لكن ابن كثير -رحمه الله- حينما فسر قوله تعالى: {وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ}، قال: يعني العرب من قريش وغيرهم، وهذا الفرق بين القولين.

ولكن يمكن أن يحمل قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [سورة العنكبوت: (٤٧)] على أن خبره كان عندهم مثلاً، أو يؤمنون بجنسه مما نزل عليهم من الكتب ومن هؤلاء من

يؤمن به لكن كأن الكلام فيه إشكال؛ لأن مثل هذه الضمائر كلها عائدة إلى الكتاب الذي أنزل على النبي - صلى الله عليه وسلم.

أو أن الضمير يرجع إلى الكتاب المذكور أخيراً {فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} فيمكن أن يوجه كلام ابن جرير بهذا الاعتبار، ولكن إذا أردنا أن نوحد مرجع الضمائر سنقول: {وَمِنْ هَؤُلَاءِ} إذا قلنا أيضاً إنه من أهل الكتاب المعاصرين للنبي -صلى الله عليه وسلم- {مَن يُؤْمِنُ بِهِ} المذكور أخيراً وهو الكتاب المنزل عليه، وهذا لا يخلو من إشكال من جهة المعنى، وحتى من ناحية اللغة فإن الأصل في عود الضمير أنه يعود للمضاف ولا يعود للمضاف إليه؛ لأن المضاف هو المحدث عنه -أهل الكتاب-، والذي يظهر -والله أعلم- أن ذلك جميعاً يرجع إلى الكتاب الذي أنزل على النبي -صلى الله عليه وسلم.

وابن كثير -رحمه الله- يقول في قوله: {وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ} يعني: العرب من قريش وغيرهم، وهذا يُحمل على من دخل في الإسلام، وهذا قول حسن.

ثم قال تعالى: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ} [سورة العنكبوت: (٤٨)] أي: قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ} [سورة الأعراف: (١٥٧)] الآية، وهكذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دائماً إلى يوم الدين، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده، بل كان له كتّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم.

هذه قضية تشبه أن تكون محل إجماع بين العلماء، فالنبي -صلي الله عليه وسلم- لم يكن يحسن الكتابة ولا القراءة، ولهذا وصفه الله -تبارك وتعالى- بالأمي {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [سورة الجمعة: (٢)] وذلك معجزة من معجزاته -صلى الله عليه وسلم- رجل لا يقرأ ولا يكتب ينزل عليه هذا الكتاب المعجز بألفاظه وما تضمنه من التشريع والهدايات، مما لا يمكن أن يصدر عن رجل أمي وذلك رد بليغ على الذين قالوا: {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا} [سورة الفرقان: (٥)] أو قالوا: إنما يعلمه بشر، وإن كان قال من شذ بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- تحققت معجزته بذلك، ثم عرف القراءة بعدها فهذا خرق للإجماع، وقد قال بذلك أحد المغاربة وشنع عليه أهل العلم في زمانه تشنيعاً عظيماً، بل كفره بعضهم وعدّ ذلك تكذيباً للقرآن، وقالوا في ذمه الشعر والنثر، وهذا معروف في محله، فهذا القول لا يلتفت إليه، ولعله التبس على قائله، باعتبار ما ورد أو روي في بعض الروايات الضعيفة التي لا تصح بقصة الحديبية، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- في قصة الحديبية لم يكن يقرأ، ولذلك لما طلب المشركون أن يمحو -صلى الله عليه وسلم- وصفهم بالرسالة، وقالوا نحن لا نقر لك بهذا، فلما أبى علي -رضي الله عنه- أن يمحو ذلك، طلب منه النبي- صلي الله عليه وسلم- أن يريه ذلك الموضع، فمحاه النبي -صلى الله عليه وسلم- بيده، والحاصل أنه جاء في بعض الروايات الضعيفة أن النبي -صلي الله عليه وسلم- عرف ذلك من عند نفسه، وهذا لا يصح فيه شيء،

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أن توفاه الله -تبارك وتعالى- لم يكن يحسن القراءة ولا الكتابة، والأدلة على هذا معروفة.

{إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} [سورة العنكبوت: (٤٨)] أي: لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس، فيقول إنما تعلم هذا من كتاب قبله مأثور عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم أنه أمي لا يحسن الكتابة {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [سورة الفرقان: (٥-٦)]، وقال هاهنا: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} [سورة العنكبوت: (٤٩)]، أي: هذا القرآن آية بينة واضحة في الدلالة على الحق أمراً ونهياً وخبراً، يحفظه العلماء، يسّره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً كما قال تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} [سورة القمر: (١٧)]، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة))[1] .

قوله -تبارك وتعالى-: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} [سورة العنكبوت: (٤٩)] ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة: أناجيلهم في صدورهم، والضمير في قوله –تبارك وتعالى-: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ} يرجع إلى القرآن، وهذا ظاهر كلام ابن كثير –رحمه الله-، وبعض أهل العلم يقول: إن الضمير يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، واختار هذا القول ابن جرير -رحمه الله- وجماعة من السلف، وعلله بأنه واقع بين خبرين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، وعلى كلام ابن جرير {بَلْ هُوَ} أي: النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه لا يقرأ ولا يكتب، لكن هذا -والله أعلم- كأن ظاهر السياق لا يساعد عليه، وإنما ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- أليق بالسياق، وهو أن الضمير يرجع إلى الكتاب الذي أنزل عليه -عليه الصلاة والسلام.

وأما قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} [سورة العنكبوت: (٤٩)] أي: ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس: (٩٦-٩٧)].

والمقصود بالآيات هنا الآيات المطلقة، سواء ما تتعلق بإثبات نبوته –صلى الله عليه وسلم-، أو كانت الآيات المتلوة، أو دلائل قدرة الله –تبارك وتعالى- على الخلق، والدلائل على إلهيته وربوبيته وعظمته وأسمائه وصفاته، ولما كانت الآيات تتحدث عما أنزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- حملها ابن جرير -رحمه الله- على جحد نوع من الآيات، وهو ما يختص بالآيات الدالة على نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-، والله تعالى أعلم.

---

[1] - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل (١٩٠٥/٤)، برقم: (٤٦٩٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٣٤/١)، برقم: (١٥٢).

قال ابن القيم -رحمه الله- "إنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم، وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم، فقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} [سورة العنكبوت: (٤٧-٤٩)] وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ وهو في نفسه آيات بينات فيكون أخبر عنه بخبرين أحدهما أنه آيات بينات الثاني أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم، أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم أي كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم، والقولان متلازمان ليسا بمختلفين، وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم فتأمله...

وأنكر على من لم يكتف بالوحي عن غيره فقال: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة العنكبوت: (٥١)].

ذكر هذا جوابا لطلبهم آية تدل على صدقه، فأخبر أنه يكفيهم من كل آية، فلو كان ما تضمنه من الإخبار عنه وعن صفاته وأفعاله واليوم الآخر يناقض العقل لم يكن دليلا على صدقه فضلا عن أن يكون كافيا، وسيأتي في الوجه الذي بعد هذا بيان أن تقديم العقل على النقل يبطل كون القرآن آية وبرهانا على صحة النبوة[٢].

فابن القيم –رحمه الله– ذكر في قوله –تبارك وتعالى- {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} [سورة العنكبوت: (٤٩)] الوجهين وما بينهما من الملازمة:

الوجه الأول: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} وصفه بهذا الوصف أنه آيات بينات وأنه محفوظ في صدورهم، بمعنى أنه لم ينزل عليه كتاب يُقرأ كما نزل على الأنبياء قبله، وإنما نزلت هذه الآيات التي أودعها الله -عز وجل- في قلب نبيه -صلى الله عليه وسلم- وحفظها أصحابه.

الوجه الثاني: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} يعني هذا موقعه في صدورهم، وأنه آيات بينات واضحة الدلالة على الحق لا تترك فيه لبسا، فليس المقصود أن ألفاظه محفوظة في صدورهم، ولكن المقصود أن ذلك موقعه في نفوسهم، فأهل العلم يحفظونه في صدورهم، وأثره ووقعه كبير في نفوسهم، وهذا مراد ابن القيم -رحمه الله- من أن بين القولين ملازمة، وقد يكون في العبارة شيء من التوسع؛ إذ إن الملازمة بين القولين قد تكون ظاهرة باعتبار ما يعرف من معنى التلازم عند الأصوليين، كما في قوله -تبارك وتعالى- {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء} [سورة البقرة: (٢٥٥)] فإذا قيل: الضمير يرجع إلى علم الله، والقول الآخر أنه يرجع إلى ما ذكر قبله {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} [سورة البقرة: (٢٥٥)] فبين القولين ملازمة؛ إذ إن علم ما بين أيديهم وما خلفهم هو بعض علم الله -عز وجل- فإذا كانوا لا يعلمون ما عندهم علم ما بين أيديهم وما خلفهم، فيلزم من ذلك أنهم لا يحيطون بشيء من علم الله -تبارك وتعالى- هذه ملازمة ظاهرة، وكما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَ رَبُّكُمُ

---

[٢] - مفتاح دار السعادة (١/٥٠)، والصواعق المرسلة (٣/ ٨٢٦- ٨٢٧).

ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [سورة غافر: (٦٠)] يعني: اسألوني أعطكم، أو اعبدوني أستجب لكم، يعني: القبول والثواب والأجر، فالدعاء يمكن أن يفسر بدعاء المسألة، ويمكن أن يفسر بدعاء العبادة، وبين القولين ملازمة؛ إذ إن دعاء المسألة هو من أجلّ أنواع العبادة، وإن السائل بلسانه عابد لله -عز وجل- كما إن العابد بجوارحه سائل بفعله؛ إذ إنه يطلب ما عند الله -تبارك وتعالى- بهذه العبادة.

{وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة العنكبوت: (٥٠-٥٢)].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات، -يعنون- ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله كما أتى صالح بناقته، قال الله تعالى: {قُلْ} يا محمد...

الآيات التي طلبوها هنا ليست الآيات المتلوة، وإنما قصدوا بذلك الآيات المعاينة المشهودة وهي المعجزات، فما يدل على صدق الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– يقال له آيات في لغة الكتاب والسنة، سواء كان ذلك من خوارق العادات التي سميت أخيراً عند المتأخرين بالمعجزات، أو كان من غير خوارق العادات، مما يدل على صدقه كما في سؤالات هرقل لأبي سفيان، فإنه ما سأله عن شيء من خوارق العادات، وإنما سأله عن قضايا تتصل بما يدعو إليه، وعن صدقه -صلى الله عليه وسلم-، وما يتصل بآبائه هل كان فيهم من ملك؟ كل هذا ليس من المعجزات، وهكذا يعرف ما جاء به الرسول -عليه الصلاة والسلام- بأمور كثيرة لا تكون معجزة ولا تكون خارقة، ولكن المتأخرين قالوا عن هذه الخوارق: إنها معجزات، وما كان على يد أتباع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من هذه الخوارق قالوا عنها: كرامات الأولياء، ولا مشاحة في الاصطلاح، وكل ذلك في لغة القرآن.

فالكفار كانوا يطالبون النبي –صلى الله عليه وسلم– بألوان من الآيات على سبيل التعنت، فتارة يطلبون تنزيل الملائكة، وتارة يطلبون تحول الصفا إلى ذهب، مع أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان له آيات وخوارق، كانشقاق القمر {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ} [سورة القمر: (١)]، وغيرها من الآيات.

ومع ذلك كابروا وأعرضوا وقالوا بأن ذلك سحر، والله يقول: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ} [سورة الإسراء: (٥٩)]، المقصود هذا النوع من الآيات التي يقترحها الكفار، وليس معنى ذلك أنه لم يكن للنبي -صلى الله عليه وسلم- معجزات.

قال الله تعالى: {قُلْ} يا محمد {إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ} أي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم، لأن هذا سهل عليه يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا} [سورة الإسراء: (٥٩)].

وقوله: {وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} أي: إنما بعثت نذيراً لكم بيّن النذارة، فعليّ أن أبلغكم رسالة الله تعالى {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا} [سورة الكهف: (١٧)]، وقال تعالى: {لَّيْسَ عَلَيْكَ

هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء} [سورة البقرة: (٢٧٢)]، ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم وسخافة عقلهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد -صلى الله عليه وسلم- فيما جاءهم، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه، فقال تعالى: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ} [سورة العنكبوت: (٥١)] أي: أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ} [سورة الشعراء: (١٩٧)]، وقال تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى} [سورة طه: (١٣٣)].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة))[٣].

وقد قال الله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة العنكبوت: (٥١)]، أي: إن في هذا القرآن لرحمة أي بياناً للحق وإزاحة للباطل، وذكرى بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين لقوم يؤمنون.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً} [سورة العنكبوت: (٥١)] أي: بياناً للحق وإزاحة للباطل، ومن أوجه كونه رحمة أن الله -تعالى- بعث هذا النبي -عليه الصلاة والسلام- وأنزل عليه هذا الكتاب على حين فترة من الرسل، وانقطاع من السبل، بعد اندراس آثار النبوة، واضمحلال كثير من أعلامها، ومعالمها، واختلف الذين أنزل عليهم الكتاب في كتبهم، وفي ربهم -تبارك وتعالى- وفي أنبيائهم اختلافاً كثيراً، وكان آخر ما وقع في ذلك بعد عيسى -عليه الصلاة والسلام-، وما حصل من التحريف والتبديل والتغيير في الكتاب الذي أنزل عليه، وللدين الذي جاء به في أصوله، وفروعه، بل إنهم أعرضوا عن ذلك كليا، فبدلوا الاعتقاد بما أسموه بالأمانة العظمى، وبدلوا التشريعات التي كانوا متعبدين بها، بدلوا ما جاء به عيسى -صلى الله عليه وسلم- من نسخ ما فرض على بني إسرائيل من الآصار والأغلال، فما عادوا على اعتقاد صحيح، ولا على تشريع منزل، فهم أهل ضلال، من شدة بغضهم لليهود لم يعملوا بالتوراة، وتركوها، فلم يكن عندهم قانون يضبط حياتهم ويحكم بينهم ويرجعون إليه، وفي الاعتقاد اختلفوا كثيراً -كما هو معلوم- حتى دخل قسطنطين بعد عيسى -صلى الله عليه وسلم- بنحو ثلاثمائة سنة حينما كان ملكا للرومان، وبعد ملكه بنحو سبع سنين، وبعد بداية ملكه كانت أمه قد تنصرت، فدعته، فتأثر بها، وأظهر ذلك -أي أنه دخل في النصرانية-، وبعضهم يقول: إنه

---

[٣] - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل (١٩٠٥/٤)، برقم: (٤٦٩٦).

لم يعتقد ذلك فعلاً، وإنما جرّ النصرانية وأدخلها في وثنيته، وحصل ما حصل، وأُقرت عقيدة الشرك رسمياً -عقيدة التثليث- واشتغلت أمه في نشر ذلك الباطل، وعقيدة الصليب، وبذلت في ذلك جهوداً لا يقادر قدرها حتى إنه قيل: ما من كنيسة في بلاد مصر والشام وما والاها إلا كان ذلك من بنائها وبناء ابنها، حتى قيل: إنه بنى اثنتي عشرة ألف كنيسة، فبنت أمه الكنائس في مصر، وعذبت اليهود، واضطهدوا في عهده، بعدما كانوا يتسلطون على النصارى، وامتحنتهم تبحث عن الصليب الذي صلب عليه عيسى -صلى الله عليه وسلم-، والمكان الذي صلب فيه -تعتقد أنه صلب- فدلها بعضهم -بعد امتحان وعذاب- أنه كان ذلك في مكان كناسة ومحل للقمامة -أعزكم الله- فأمرت بإزاحة ذلك، وأخرجت صليباً، وأزاحت ما فيه من أذى، وألبسته الذهب واعتنت به غاية العناية، وبنت في مكان القمامة كنيسة يقال لها كنيسة القمامة، وأقامت كنيسة في بلاد الشام أيضاً على أربعة أصول يقال إنها من عجائب الدنيا في بنائها إلى غير ذلك مما نشروا من الضلال والباطل والكفر بالله -تبارك وتعالى-، وفعلوا أموراً كثيرة عظيمة، وصار أهل التوحيد يستضعفون ويستذلون لأنهم قلة قليلة، وأخفيت الأناجيل التي تذكر التوحيد وتدل عليه صراحة، فالشاهد أنه حدثت كل هذه الأمور، فالله -تبارك وتعالى- أنزل هذا القرآن يبين لهم ما اختلفوا فيه من الحق، ويرشدهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويقص على بني إسرائيل أكثر الذي كانوا فيه مختلفين، وأنزله على قوم أميين لا يقرءون ولا يكتبون، كانوا على حال من الجهالة والعماية أبعد ما يكونون عن شمس النبوة، ولا عهد لهم بذلك، فكل ذلك كان رحمة لهم منه -تبارك وتعالى- {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة العنكبوت: (٥١)] فلولا أن الله -تبارك وتعالى- لطف وجاء بهذا القرآن، وبعث هذا النبي -صلى الله عليه وسلم- وإلا فكيف يُعرف الحق إذا كان آخر ما بعث من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هذا ما فُعل بدينه وهذا ما وقع فيه من التحريف، فكيف بمن قبله؟

وكيف يتوصل الناس إلى الحق ويعرفون عبادة الله على الوجه الصحيح ووحدانيته؟ فكان القرآن من أعظم الرحمة التي تفضل الله -عز وجل- بها على عباده.

ثم قال تعالى: {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا} [سورة العنكبوت: (٥٢)]، **أي هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني، كما قال تعالى:** {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [سورة الحاقة: (٤٤-٤٧)] **وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات** {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} **أي: لا تخفى عليه خافية** {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة العنكبوت: (٥٢)]، **أي: يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، فسيجزيهم على ذلك، إنه حكيم عليم.**

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة العنكبوت: (٥٣-٥٥)].

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم وبأس الله أن يحل عليهم، كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال: (٣٢)] وقال ههنا: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ} [سورة العنكبوت: (٥٣)] أي: لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه.

ظاهر كلام ابن كثير -رحمه الله- أن العذاب الذي استعجلوه هو عذاب القيامة، هم طلبوا ذلك، لكن ذلك يحتمل أن يكون عذاب يوم القيامة، أو أن يكون المقصود العذاب الذي وُعدوا به في الدنيا، أنزل علينا عذاباً في الدنيا.

{وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ} إذا قلنا إن المقصود عذاب يوم القيامة فمن أهل العلم من يقول: الأجل المسمى هو الموت، فإن الإنسان إذا مات صار إلى ما وعد، وعاين الحقائق وأبصر ما كان عليه، فيعذب أو ينعم في البرزخ، ثم يصير إلى عذاب النار أو إلى الجنة بعد ذلك، ويكون الأجل هنا هو مدة أعمارهم فإذا جاء أجلهم وماتوا انتقلوا إلى ما وعدوا. ويحتمل أن يكون الأجل هو القيامة، وأن الله حدد لها وقتاً فلا تتقدم عليه.

ومن أهل العلم من يقول -باعتبار أن العذاب المقصود به الذي طلبوه-: إن ذلك في الدنيا، أي: وقت محدد يقع به كما في يوم بدر، فكل شيء عند الله -تبارك وتعالى- بأجل ووقت لا يتقدم عليه ولا يتأخر.

وقد قال -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال: (٣٢)] يقصدون في الدنيا فهذا من استعجالهم بالعذاب.

وقوله -سبحانه-: {وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [سورة العنكبوت: (٥٣)] مع قوله: {يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [سورة العنكبوت: (٥٤)] يشعر أن العذاب الذي استعجلوا به هو عذاب الآخرة، فالساعة تأتي بغتة، أما ما وقع يوم بدر فلم يكن بغتة، وقوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ} [سورة العنكبوت: (٥٥)] قرينة تدل على أن المقصود بالعذاب الذي استعجلوه هو عذاب الآخرة.

ثم قال: {وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً} [سورة العنكبوت: (٥٣)] أي: فجأة {وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [سورة العنكبوت: (٥٣-٥٤)] أي: يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة.

ثم قال -عز وجل-: {يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ} [سورة العنكبوت: (٥٥)]، كقوله تعالى: {لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} [سورة الأعراف: (٤١)]، وقال تعالى: {لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} [سورة الزمر: (١٦)]، وقال تعالى: {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ} [سورة الأنبياء: (٣٩)] الآية، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحسي، وقوله تعالى: {وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة العنكبوت: (٥٥)] تهديد، وتقريع، وتوبيخ، وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله تعالى: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [سورة القمر: (٤٨-٤٩)]، وقال تعالى: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا *}

هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الطور: (١٣-١٦)].

يعني: أن العذاب الحسي يغشاهم من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، ويأتيهم من كل ناحية، ومع العذاب المعنوي وما يكون من التبكيت لهم كما في هذه الآيات، وهكذا أيضاً ما ذكره الله -عز وجل- من كونهم يسحبون في النار على وجوههم، أو يدفعون فيها دفعاً وما إلى ذلك مما يكون فيه إهانة لهم إضافة إلى العذاب الحسي فيجتمع لهم العذاب الحسي، والعذاب المعنوي؛ ولهذا وصف الله -تبارك وتعالى- عذاب الكافرين في النار تارة بأنه عذاب أليم، وتارة أنه عذاب مهين، فيحصل فيه إهانة وإذلال، والإهانة والإذلال تقع على النفوس، أما ما يحصل للأبدان فكالسحب على الوجوه، أو بما تسمعه الآذان مما يقال لهم من التبكيت ونحو ذلك مما قصه الله -تبارك وتعالى- قال لهم: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الطور: (١٤-١٦)]، فالذي يقع في ورطة يكون في حال من الأسى والألم، ثم يأتي من يبكته عندها، فيجمع عليه عذاباً آخر، هذا في الدنيا.

{يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة العنكبوت: (٥٦-٦٠)].

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم، ولهذا قال تعالى: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ}.

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين هناك: أصحمة النجاشي ملك الحبشة -رحمه الله تعالى-، فآواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم سُيوماً ببلاده، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة.

فسر الحافظ ابن كثير –رحمه الله– قوله –تبارك وتعالى-: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ} [سورة العنكبوت: (٥٦)]، بالهجرة، أنه إذا ضاق موضع على الإنسان فلم يستطع أن يعبد ربه فيه فإنه ينتقل إلى غيره، فأرض الله واسعة، وهذا هو الظاهر، والله تعالى أعلم.

ومن أهل العلم من قال: إن ذلك في ابتغاء الرزق والسعي في طلبه والضرب في الأرض من أجل تحصيله بألوان التجارات والاكتساب، ولكن الأول أولى، والله تعالى أعلم.

وسياق هذه الآيات يدل -والله تعالى أعلم- على أن المقصود بذلك الهجرة، وابن جرير -رحمه الله- يحمل المعنى على هذا، بل أكثر من هذا حيث إنه يربط الآيات التي بعده به كما سبق من طريقة ابن جرير -رحمه الله- بإلحاق الكلام بما يليه فهو حتى في قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [سورة

العنكبوت: (٥٧)] يربط هذا بموضوع الهجرة والجهاد: بأن مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء ومراغمة الكافرين كل ذلك لا ينقص من عمر الإنسان، فإذا جاء الأجل مات سواء كان في أرضه أو كان خارجاً عنها، سواء كان مخلداً إلى الأرض أو مجاهداً لأعداء الله -تبارك وتعالى- فإن ما ينزل بالإنسان من الغربة أو الكربة من الأوجاع والآلام أو الجراح أو نحو ذلك لا يغير من الأجل قليلاً أو كثيراً، فإذا جاء الأجل مات الإنسان، فالمرض لا علاقة له بالأجل، والجراح لا علاقة لها بالأجل وكما قيل:

لو أن عبداً مدرِكُ الفلاحِ*** لناله ملاعبُ الرماح

قوله: {وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة العنكبوت: (٦٠)]، ابن جرير يربط هذا بموضوع الهجرة والجهاد، ويقول إن رزق الله آت لا يرده أحد، فإذا ضاق عليكم مكان انتقلوا إلى مكان آخر، والآجال محسومة مكتوبة ومؤجلة ومؤقتة بوقت لا تتقدم عليه ولا تتأخر، فانطلقوا واعبدوا الله -تبارك وتعالى- وتقربوا إليه بألوان القربات، وراغموا أعداءه، فإن ذلك لن يغير من آجالكم، ولن يكون نقصا في أرزاقكم.

ثم قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [سورة العنكبوت: (٥٧)] أي: أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله، فهو خير لكم، فإن الموت لابد منه ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء، ووافاه أتم الثواب؛ ولهذا قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [سورة العنكبوت: (٥٨)]، أي: لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا.

{لَنُبَوِّئَنَّهُم} أي لنسكننهم، ومنه قوله -سبحانه-: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ} [سورة الحشر: (٩)] يعني: سكنوا المدينة.

وقد قرأ حمزة والكسائي {لنثوِّينَّهم من الجنة غرفا} يعني: لنعطينهم غرفاً عالية في الجنة يثوون فيها، والغرف هنا جاءت منصوبة على تضمين نبوئنهم معنى ننزلنهم، فهو يتعدى إلى مفعولين، لكن لنبوئنّهم لا يتعدى إلى مفعولين، فالمفعول الأول الضمير الهاء، كما تقول مثلاً لأنزلن زيداً، هذا المفعول الأول، لأنزلن المؤمن غرفاً، فيكون هذا المفعول الثاني، وقد يكون "غرفا" منصوباً على نزع الخافض، أو الظرفية، والله أعلم.

{خَالِدِينَ فِيهَا}، أي: ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولا {نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين {الَّذِينَ صَبَرُوا} أي: على دينهم، وهاجروا إلى الله ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده وتصديق موعده.

لاحظ ابن كثير هنا يربطها بموضوع الهجرة والجهاد {الَّذِينَ صَبَرُوا} ما قال إنهم صبروا على طاعة الله وعلى معصيته وعلى أقداره المؤلمة، وإنما ربط ذلك بما قبله.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي معاوية الأشعري أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حدثه أن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم

الطعام، وأطاب الكلام، وتابع الصلاة والصيام، وقام بالليل والناس نيام {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم، ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع.

لا يزال ابن كثير –رحمه الله- يربط هذا المعنى بما قبله وهو موضوع الهجرة، وهذا يتصل بموضوع المناسبة بين الآية والآية الأخرى، فوجه الارتباط أن الآيات مترابطة بينها معنى متحد، ويقول لهم إن أرضي واسعة، ويعدهم بالأجر ويثني عليهم بالصبر، ويخبرهم بأن الرزق من عنده -سبحانه وتعالى- فلا داعي للقلق؛ لأن الناس يقلقون على شيئين اثنين فقط هما رأس المخاوف -أقصد من أمور الدنيا-:

الأول: ما يتصل بالأجل، ويرتبط بذلك ألوان من المخاطر المتعلقة بالنفس، الخوف من الناس، الخوف من السلطان، الخوف من المرض، الخوف من السبع، الخوف من الهوام، كل هذه الأشياء تتصل بالأجل، يخشى أن يقتله هذا، أو أن ينهشه هذا، أو يحصل له مكروه.

الثاني: ما يتصل بالرزق، هذا القلق الدائم المرتبط بالتفكير في المستقبل، كيف ستكون الأوضاع؟ هل سيعمل؟ هل سيجد عملا ؟

فهاتان قضيتان حسمهما الله -تبارك وتعالى- فالملَك يرسل إليه وهو في بطن أمه، ويؤمر بأربع كلمات، منها الرزق والأجل، وقدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، فلو أن الناس استيقنوا ذلك ووقر في قلوبهم وثبت لارتفعت عنهم كثير من الهموم والعلل والأنصاب التي يعاني منها أكثر الخلق.

قوله: {وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة العنكبوت: (٦٠)] الدواب لا تحمل رزقها، أي: لا تدخر رزق يومها الآخر، ولا تدخر شيئاً من الرزق، إنما تأكل ما لقيته، وما حصل في ساعته، ورزق الغد يأتي به الله الذي قدر رزق اليوم.

ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع، وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، ولهذا قال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا} أي: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئاً لغد.

{وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ} بعضهم يقول: إن الكاف هذه كاف التشبيه، وإن أصل كأين "أي" دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيها معنى "كم" التي تكون للتكثير، هذا الذي يذهب إليه الخليل بن أحمد، وسيبويه، وبعضهم يسهل ذلك ويختصر ويقول في معنى قوله: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ} أي: وكم من دابة، والمقصود بذلك التكثير، أي: لا تطيق جمعه وتحصيله، لاحظْ: لا تحمل رزقها: لا تطيق جمعه وتحصيله لضعفها.

وقد قال أهل التفسير في قوله –تبارك وتعالى-: {وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا} أي: لا تقدر على جمعه وتحصيله لضعفها، وبعضهم يقول: {لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا} أي: لا تدخر لغدها كما يقول ابن جرير، ولا يوجد بين هذه المعاني منافاة، وقد جمع ابن كثير -رحمه الله- بين هذين المعنيين بعبارة واحدة، فقال: أي لا تطيق جمعه وتحصيله، ولا تدخر شيئاً لغد.

{اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ} أي: الله يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء والحيتان في الماء. قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦].

مضى الكلام على هذا طويلاً، وليس المقصود من هذا الدرس في التفسير ذكر الهدايات والمعاني الزائدة ونحو ذلك، وإنما هو توجيه أقوال المفسرين؛ وبيان مأخذ القول، والجمع بين الأقوال أو الترجيح.

لكن هذا المعنى الكبير الذي ذكره الله -تبارك وتعالى-: {اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ} مضى الكلام عليه مطولاً في الأعمال القلبية في الكلام على التوكل، كما مضى الكلام على ذلك في الأسماء الحسنى في مناسبات، والكلام عليه مع شيء من البسط في الكلام على اسمه -تبارك وتعالى- الرزاق، والله المستعان.

{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [سورة العنكبوت: (٦١-٦٣)]، **يقول تعالى مقررا أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم، ففاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير وهو العليم بما يصلح كلا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك، فلمَ يُعبد غيره؟ ولمَ يُتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك.**

إذا كان الله -تبارك وتعالى- هو الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر، وهو الذي يخلق ويرزق ويعطي ويمنع، فكيف تُوجَّه العبادة إلى غيره ؟ كيف تكون الرغبة إلى غيره ؟ فإن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية، فإذا كنتم تقرون بتوحيد الربوبية فاعبدوه وحده لا شريك له.

كما أن توحيد الإلهية متضمن توحيد الربوبية، فإنه حينما تُوجَّه العبادة إلى الله -تبارك وتعالى- حينما يقال: هو الله: هو المعبود: هو الإله فإن هذا يتضمن أنه الكامل من كل وجه، فهو الرب المدبر، المتصرف، السيد، الخالق، الرازق، المحيي، المميت، الذي اتصف بجميع صفات الكمال، ولهذا كان أجمع الأوصاف على الإطلاق صفة الإلهية؛ لأنها تدل على جميع صفات الكمال، فهي مضمنة فيها، فإنه المألوه المعبود الذي اتصف بكل كمال، ولهذا قال الله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[سورة الفاتحة: (٢)] فـ "ال" للاستغراق، فجميع المحامد مستحقة لله -تبارك وتعالى- ولا يكون ذلك -أي كل المحامد مستحقة- إلا لمن كان كاملا من كل وجه، وليس فيه نقص بوجه من الوجوه فاستحق الحمد الكامل المطلق، والله تعالى أعلم.

{وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [سورة العنكبوت: (٦٤-٦٦)]، **يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام**

لها، وغاية ما فيها لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان: أي الحياة الدائمة: الحق الذي لا زوال لـــه ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد.

{وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ} [سورة العنكبـــوت: (٦٤)] الحيوان يقال للحياة، لكن ما كان على هذه الزنة فإنه أبلغ في الوصف؛ لأنه عدل به عن نظائره، والمقصود بذلك الحياة التي لا يعتورها نقص بوجه من الوجـــوه، فهي حياة كاملة، وهي الحياة الحقيقية؛ لأن الحياة الدنيا منغصة بألوان المكدرات، ثم بعد ذلك يعقبها المـــوت، وأما الآخرة فهي حياة كاملة، لا نقص فيها ولا موت فهم خالدون، هذه الحياة التي يصح أن يقال عنها: إنهـــا حياة حقيقة لكمالها.

قال ابن القيم –رحمه الله-: "{وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ} والمراد الجنة عند أهـــل التفـــسير قـــالوا: وإن الآخرة يعني الجنة لهي الحيوان لهي دار الحياة التي لا موت فيها، فقال الكلبي هي حياة لا موت فيهـــا قـــال: وقال الزجاج: هي دار الحياة الدائمة، وأهل اللغة على أن الحيوان بمعنى الحياة، وقال أبو عبيدة وابن قتيبـــة الحياة الحيوان قال أبو عبيدة الحياة والحيوان والحِيّ بكسر الحاء واحد"[٤].

من العلماء من يقول: الحياة والحيوان هما بمعنى واحد، يقال حِيّ وحيوان بمعنى واحد، وبعضهم يقول ذلـــك لما كان فيه حياة واضحة، يعني ما يقابل ما لا حياة فيه من الحياة والجماد، والمقصود بالحياة عنـــد الفقهـــاء وعند أهل العلم ليس ما اصطلح عليه الناس اليوم من أن النبات والنطفة فيها حيوانات منوية، فهـــم يعتبـــرون هذا كله من قبيل مالا حياة فيه.

وإنما ما كان فيه روح سارية فإنه يقال له حيوان، ولهذا فإن أهل المنطق يقولون: إن الإنسان حيوان نـــاطق بهذا الاعتبار.

يقول ابن القيم: "قال أبو علي: يعني أنها مصادر فالحياة فَعَلة كالحَلَبة، والحيوان كالنزَوان والغلَيـــان، والحِـــي كالعِي، قال العجاج:

كنا بها إذا الحياة حِي.

أي: إذا الحياة حياة، وأما أبو زيد فخالفهم وقال: الحيوان ما فيه روح والموتان والمـــوات مـــا لا روح فيـــه. والصواب أن الحيوان يقع على ضربين أحدهما مصدر كما حكاه أبو عبيدة، والثاني وصف كما حكاه أبو زيد وعلى قول أبي زيد الحيوان مثل الحي خلاف الميت، ورجح القول الأول بأن الفَعَلان بابه المصادر كالنزوان والغليان بخلاف الصفات فإن بابها فَعْلان كسكران وغضبان، وأجاب من رجح القول الثاني بأن فَعَـــلان قـــد جاء في الصفات أيضا قالوا رجل ضَمَيان للسريع الخفيف، وزَفَيان قال في الصحاح ناقة زفيان سريعة وقوس زفيان سريعة الإرسال للسهم، فيحتمل قوله تعالى: {وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ} معنيين:

أحدهما: أن الحياة الآخرة هي الحياة لأنها لا تنغيص فيها ولا نفاد لها أي لا يشوبها ما يشوب الحياة في هـــذه الدار فيكون الحيوان مصدرا على هذا.

---

[٤] - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٩٨).

والثاني: أن يكون المعنى أنها الدار التي لا تفنى ولا تنقطع ولا تبيد كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت"[٥].

فالمعنى الأول: الدار الآخرة هي الحيوان يعني الحياة الحقيقية، وهي التي تستحق أن يقال عنها حياة لا فيها منغصات ولا مكدرات، والمعنى الثاني: أنها أحق بهذا الوصف يعني: الحياة التي يقابلها الموت، الحياة الآخرة هي التي تستحق أن يقال لها ذلك فهي أكمل، والنعيم فيها يقع على الروح والجسد على حد سواء، وما يحصل فيها من اللذات والمتع وما إلى ذلك أكمل بكثير مما يقع في الدنيا، أما الحياة في الدنيا فهي قصيرة يعقبها الموت.

وقوله تعالى: {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [سورة العنكبوت: (٦٤)] أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى، ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائما، {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} كقوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ} [سورة الإسراء: (٦٧)] الآية، وقوله تعالى: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا} هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة، لأنهم لا يقصدون ذلك، ولاشك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل، وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله: {لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [سورة القصص: (٨)].

العلماء -رحمهم الله- يقولون في مثل هذا: إنها لام عاقبة يعني: أنهم ما قصدوا الوصول إلى هذا، وما فعلوا هذا من أجل هذا، يعني ليست لام التعليل، وإنما لام العاقبة.

مثال ذلك قوله -عز وجل-: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [سورة القصص: (٨)] فهل التقطوه من أجل أن يكون لهم عدوا ؟ الجواب: لا، فاللام هنا للعاقبة.

ابن كثير يفصل هذا التفصيل -كما ذكره في ذلك الموضع أيضاً- فيقول هي بالنسبة لله -تبارك وتعالى- لام التعليل، وليست لام العاقبة، وبالنسبة لفعلهم هم هي لام العاقبة؛ لأنهم لم يقصدوا الوصول إلى ذلك.

وفي قوله تعالى: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا} [سورة العنكبوت: (٦٦)] يقول ابن كثير: بالنسبة إليهم هي لام العاقبة، وبالنسبة لله -عز وجل- وتدبيره هي لام التعليل.

وهذه الآية فيها قراءتان متواترتان، فعلى قراءة أبي عمرو وعاصم وابن عامر وورش بكسر اللام، فاللام للتعليل، وبعضهم يقول: هي بالكسر لام الأمر على سبيل التهديد كما قال: {تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} [سورة الزمر: (٨)].

وعلى قراءة الجمهور بسكون اللام فهذه لا خلاف أنها لام أمر، ومن ثم يقال في هذه اللام: إنها لام الأمر أو لام التعليل، والله تعالى أعلم.

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ * وَالَّذِينَ جَاهَدُوا

---

[٥]- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٩٨-٩٩).

فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [سورة العنكبوت: (٦٧-٦٩)]، يقول تعالى ممتنا على قريش فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن دخله كان آمنا فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضا، ويقتل بعضهم بعضا، كما قال تعالى: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} [سورة قريش: (١-٤)]، وقوله تعالى: {أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ} [سورة العنكبوت: (٦٧)]، أي أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد وبدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار وكفروا بنبي الله وعبده ورسوله؟!، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله، وأن لا يشركوا به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقاتلوه، وأخرجوه من بين ظهرهم، ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدر، ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم.

ثم قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ} [سورة العنكبوت: (٦٨)]، أي: لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله، فقال: إن الله أوحى إليه، ولم يوح إليه شيء. ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفترٍ، والثاني مكذب.

{وَمَنْ أَظْلَمُ} أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا، {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّـهِ} [سورة البقرة: (١١٤)] لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، فهذا على أحد وجهين، الأول: أن يقال ذلك على سبيل الإطلاق بمعنى أن أفعل التفضيل لا تمنع التساوي، وإنما تمنع أن يزيد أحد على هذا المذكور، يعني أنه بلغ الغاية، فلا أحد يزيد على ظلم من منع مساجد الله، ولا أحد يزيد على ظلم من افترى على الله كذبا، أو من ذُكر بآيات ربه ثم أعرض عنها، فكل هؤلاء بلغوا في الظلم غايته، فأفعل التفضيل لا تمنع التساوي ولكنها تمنع الزيادة، فلا يشكل بعد ذلك، وليس هناك تعارض، فكل هؤلاء بلغوا الغاية في الظلم.

والوجه الثاني: أن يكون كل واحد يختص بموضعه، ففي المانعين لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، وفي المعرضين لا أحد أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها، وفي المفترين لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا.

ولهذا قال تعالى: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ} [سورة العنكبوت: (٦٨)]، ثم قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا} [سورة العنكبوت: (٦٩)]، يعني: الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين لنهدينهم سبلنا أي لنبصرنهم سبلنا، أي طرقنا في الدنيا والآخرة.

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [سورة العنكبوت: (٦٩)] هل المقصود به الجهاد بالمعنى الخاص وقتال الأعداء، أو المقصود بالمجاهدة المعنى العام؟ لأن هذه السورة مكية ونزلت قبل فرض الجهاد.

ولهذا يقول بعض المفسرين -كابن عطية-: إن هذه الآية في الجهاد العام، كجهاد النفس والهوى والشيطان، والدعوة إلى الله وبيان الحق والرد علي المبطلين؛ لأن الآية نازلة في مكة ولم يفرض الجهاد الذي هو القتال بعد، فالذي يجاهد نفسه ليردها عن الباطل ويجاهد هواه ويبذل وسعه في طلب الحق فإن الله -عز وجل- يسدده ويوفقه ويبصره ويهديه.

وحمل بعض أهل العلم -كابن أدهم- هذه الآية على المعنى القريب من هذا، لكنه في العمل يجاهد نفسه بالعمل بما علم، لكن لا حاجة لهذا التقييد.

وبعضهم يحمل الآية -كما هو ظاهر كلام ابن كثير -رحمه الله- على الجهاد عموماً، وبعض أهل العلم قال: إن ذلك في الجهاد الذي هو قتال الكفار، وإن الناس إذا اختلفوا في شيء، فإنه ينظر ما كان عليه أهل الجهاد فإن الله يقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}، ولكن إذا قيل بأن الآية مكية، وأن المقصود بالجهاد هو المعنى العام، فمن جاهد في طلب الحق، وبذل وسعه في تلمسه، وجاهد نفسه، وهواه فإن الله يسدده، ويوفقه.

روى ابن أبي حاتم عن عباس الهمداني أبي أحمد -من أهل عكا- في قول الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}، قال: الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون. قال أحمد بن أبي الحواري: فحدثت به أبا سليمان الداراني، فأعجبه وقال: ليس ينبغي لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثر عمل به، وحمد الله حين وافق ما في نفسه.

وقوله: {وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} قال ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: قال عيسى ابن مريم -عليه السلام-: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، والله أعلم.

نقل عن عيسى -صلى الله عليه وسلم- أن الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، والإحسان هنا أعم من هذا المعنى، فالإحسان مع الله -تبارك وتعالى- أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فهذه المرتبة العالية من مراتب الدين، ثم بعد ذلك الإحسان مع الخلق بإسداء المعروف وبذل النفع وألوان البر للخلق، فهذا كله من الإحسان.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "قَالَ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [سورة العنكبوت: (٦٩)]، علق سُبْحَانَهُ الْهِدَايَة بِالْجِهَادِ فأكمل النَّاس هدَايَة أعظمهم جهادا وأفرض الْجِهَاد جِهَاد النَّفس وَجِهَاد الْهوى وَجِهَاد الشَّيْطَان وَجِهَاد الدُّنْيَا فَمن جَاهد هَذِه الْأَرْبَعَة فِي الله هداه الله سبل رِضَاهُ الموصلة إِلَى جنته وَمن ترك الْجِهَاد فَاتَهُ من الْهدى بِحَسب مَا عطل من الْجِهَاد، قَالَ الْجُنَيْد: وَالَّذين جاهدوا أهواءهم فِينَا بِالتَّوْبَة لنهدينهم سبل الْإِخْلَاص وَلَا يتَمَكَّن من جِهَاد عدوه فِي الظَّاهِر إِلَّا من جَاهد هَذِه الْأَعْدَاء بَاطِنا فَمن نُصر عَلَيْهَا نصر على عدوه وَمن نصرت عَلَيْهِ نصر عَلَيْهِ عدوه"[٦].

---

[٦] الفوائد لابن القيم (ص: ٥٩).